إلى

لقاء المؤمنين

وبناء الجيل المؤمن

العهد والبيعة

وواقعنا المعاصر

الدكتور

عدنان علي رضا النحوي

دار النحوي للنشر والتوزيع

٢٥٧,٩
٢٣٧ ن النحـوي ، عـدنـان عـلي
العهد والبيعة وواقعنا المعاصر / عدنان علي رضا النحوي . -
ط ٣ . - الرياض : دار النحوي ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .
١٦٠ ص ؛ ١٤ × ٢٠ سم .
ردمـك : ٥ - ٠١ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠
١ . الأخلاق الإسلامية ٢ . النظم الإسلامية
٣ . الإسلام والمجتمع أ . العنـوان

رقم الإيداع : ١٤/٠٢٤٠
ردمـك : ٥ - ٠١ - ٦٨٧ - ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

الطبعة الثانية

١٤١١هـ - ١٩٩٠م

الطبعة الثالثة

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار النحوي للنشر والتوزيع

هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧ - ص. ب - ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١

المملكة العربية السعودية

الإهـــــداء

إلى المؤمنين العاملين في الميدان،
إلى المجاهدين في سبيل الله،
إلى الجماعات المؤمنة العاملة،
ليتذكر كل مؤمن ولاءه الأول لله،
وعهده الأول مع الله، وبيعته الأولى لله،
ولتنهض العهود في حياة الناس،
وليمتد الولاء بين المؤمنين،
وليستقيم ذلك كله على أساس من منهاج الله
ـ قرآناً وسنة،
عسى أن يجمع الله الصادقين على عهد أمين،
وميثاق ربّاني كريم في لقاء المؤمنين،
في الدعوة الإسلامية، دعوة الحق.

الافتتاح

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ
تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ
﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤)

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ
رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (ال عمران : ٨١)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا
تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ
دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

(النحل : ٩٠ ـ ٩٧)

عن أبي هريرة رضـي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عَمِيَّة، يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة فقتل فقتلة جاهليّة. ومن خرج على أمتي يضرب برَّهـا وفـاجِرها ولا يتحاشى مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولستُ منه» (رواه مسلم)[1]

(١) صحيح مسلم: كتاب (٣٣). باب (١٣). حديث (١٨٤٨/٥٣).

المقدمـة

ستظل كلمة «العهد» تتردد على ألسنة المؤمنين، وتموج في أحناء صدورهم، وهي تحمل معها ظلال آيات كريمة وأحاديث شريفة، وظـلال تاريخ طويل، وأحـداث متباينة، وواقع متبدل. ستظل تتردد ممتزجة مع كلمات الميثاق والبيعة، والولاء، والسمع والطاعة.

وفي واقعنا اليوم نحتاج إلى أن نراجع أسس البيعة في الإسلام، وقواعد العهد والميثاق، وصفاء الولاء، حتى تكون ممارسة منهاج الله في واقعنا أقرب للتقوى.

ولابد من التأكيد في أول حديثنا أنه مهما ذكرنا من قواعد وأسس فإننا لا نستطيع وفاءها كاملة، ولا يستطيع أحد ذلك، إلا منهاج الله - قرآناً وسنة - فإنه هو وحده الذي يعرض الأسس والقواعد كلها متكاملة متناسقة. أما نحن فنأخذ هنا قبسات ترسم لنا النهج وتضيء الـدرب. وكذلك فإن هذه القواعد والأسس لا نستطيع ممارستها، ولا تصورها، ولا تدبُّرها وفهمها، وهي معزولة عن سائر منهـاج الله. إن سلامـة التدبُّر والفهم، وصدق الإيمان واليقين، وأمـانـة الممارسة في الواقع، إن هذا كله يفرض أن تتناسق هذه القـواعـد والأسس وأن تتكـامل مع سائر منهاج الله إيماناً وتدبراً وممارسة، وأن تتكامل وتتناسق هي نفسها فيما بينها.

والقضية الهامة التي يجب تأكيدها هي أن ميدان الممارسة يحمل قدراً غير قليل من ضرورة الاجتهاد البشريّ، الذي يصيب ويخطىء، وعسى أن ينال الجهد البشريّ المؤمن أجره عند ربه إذا استوفى شروط أمانة الاجتهاد وصدق الممارسة. ومن أجل أمانة الاجتهاد وصدق الممارسة نرى ضرورة توافر خمسة شروط:

١ - صدق النية وسلامة الإيمان، وخلو النفس من هوى مَخْفِيّ، ومصلحة مطوية.

٢ - سلامة العلم بالقرآن والسنة.

٣ - وعي الواقع من خلال القرآن والسنة، ومن خلال صدقِ النية وسلامةِ الإيمان.

٤ - الخبرة والتجربة والمران.

٥ - معرفة الحدود والطاقات، والوسع والقدرة والتزام ذلك.

أما النيّة والإيمان فأمرهما موكل إلى الله سبحانه وتعالى إلا أنه لابد من توافر سلوك ومظاهر تهب النفوس طمأنينة، وتشير إلى سلامة النيّة والإيمان. لابد من أمارات فلكل أمر أماراته. فلابد من الاطمئنان النفسيّ باستبعاد الشبهات من ناحية، وبقيام الظنّ الحسن من ناحية أخرى، وبتوافر الأمارات والسلوك والتطبيق، ومواقف الابتلاء والتمحيص، ليُجلى شاهد ودليل.

إن القاعدة الأولى في البيعة والعهد والولاء هي أن ذلك كله ينشأ أولاً بين العبد وربّه. إن أساس العهد هو عهد الإنسان مع الله سبحانه وتعالى. إنه عهد أخذه الله من بني آدم كلهم في عالم الغيب. وهو عهد حقٌّ ماض إلى يوم القيامة، لا يُغفر لأحد

مات وقد نقض العهد وأُسسه. وأَساس هذا العهد مع الله سبحانه وتعالى هو التوحيد، هو الإِيمان بالله الواحد الذي لا شريك له، الله الذي له ملك السموات والأَرض وما بينهما، الله الذي إِليه ترجع الأُمور، الله الذي يدبر الأَمر كله، له الأَسماء الحسنى، وهو كما أثنى على نفسه لا نحصي ثناء عليه. ثم يمتد العهد الثابت الحق إلى سائر بنوده وقضاياه التي يعرضها منهاج الله، والتي تنشأ كلها عن التوحيد، كالإِيمان بالغيب والملائكة والبعث واليوم الآخر والحساب، والجنة والنار، والرسل والنبيين، وغير ذلك من التكاليف. ولا يعرف هذا العهد بكماله وتناسقه إلا من منهاج الله وحده. وإِن أَساس الولاء هو الولاء لله سبحانه وتعالى، ولاء يتصف بما حدَّده منهاج الله تفصيلاً وبياناً لا ريبة فيه أَو اضطراب. وإِن أَساس البيعة كذلك هي البيعة مع الله سبحانه وتعالى. إنها بيعة ترتبط بالعهد والولاء وتقوم عليهما. وتبقى هذه الكلمات الثلاث: العهد، الولاء، البيعة مترابطة تتداخل ظلالها، وتتناسق فيما بينها من ناحية، وفيما بينها وبين سائر منهاج الله من ناحية أُخرى.

هذا العهد مع الله، العهد المرتبط بالولاء، والعهد المرتبط بالبيعة، غفل عنه المسلمون قروناً طويلة، وغاب عن حقيقة ممارستهم في الواقع، وبهتت معانيه وظلاله في النفوس شيئاً فشيئاً. إنه عهد قائم في فطرة الإنسان، ممتد في حياته، ماض إلى يوم القيامة.

وعلى أَساس من هذا العهد الحق الثابت يمكن أَن تقوم في حياة

الإنسان عهود منبثقة منه، خاضعة لشروطه، يحكمها منهاج الله، ويقتضيها واقع الإنسان المؤمن. ومن هذا التصور يمتد الولاء بين المؤمنين ليكون منبثقاً عن الولاء لله، مرتبطاً به، وكذلك تمضي البيعة في حياة الناس بيعة نابعة من العهد والولاء والبيعة لله، متصلة بها، مترابطة معها، الإخلال بأحدهما هو إخلال بالأخرى. فَبِرُّ الوالدين عهد مع الله في حياة المؤمن، عهد مع والديه نابع من عهده مع الله. وكل عقد وعهد في حياة المؤمن يجب أن ينبع من عهده مع الله، سواء في ذلك عهود التجارة وعقودها، وعهود الزواج وعقودها، والمعاهدات السياسية والدولية، وعهد الإمارة والإمامة، ووفاء المؤمن بعقد العمل وأمانة الوظيفة، وحق الجار، وصحبة السفر، إلى غير ذلك مما يلقاه المؤمن في حياته الدنيا، حيث يؤدي أمانةً حملها، واستخلافاً جعل له، وعبادة خلق لها، وعمارة أُمِرَ بها. وينتهي بذلك زعم من يحسب التجارة مهارة غشٍّ، والسياسة فنَّ خداع، والحياة الاجتماعية كذباً ونفاقاً.

هذا التصور الإيماني للعهد والميثاق، والولاء والوفاء، والبيعة والأداء، هذا التصور نحتاج اليوم إلى أن نعيده برونقه القرآني، وجماله الإيماني، وصدقه الربّاني. نحتاج اليوم إلى أن نعيده ليأخذ مكانه في الدعوة إلى الله، وفي البناء والتربية، وفي الممارسة والتطبيق. فلابد من أن تنشأ أجيال المؤمنين في الأرض على فطرتها السليمة السويّة، واعية لعهدها مع الله، وفيّة لولائها لله، صادقة في بيعتها مع الله، ترتبط عهودها كلها مع عهدها مع الله ارتباط إيمان وعلم.

وحتى يصدق التصوّر منذ البداية فإننا نوضح طبيعة الارتباط والتناسق بنقاط أساسية، ستزيد وضوحاً وجلاءً إن شاء الله مع هذا البحث في فصوله وأبوابه.

فلا يصح أن يقول رجل أنا أوفي بعهدي مع الله، ولكن أنكث عهودي مع الناس، وهي عهود مرتبطة بالعهد مع الله، متصلة به، نابعة منه. ولا يقولَنَّ أحدٌ إنه يصدق مع الله ولكن يكذب مع الناس، أو إنّ ولاءه لله رب العالمين، ثم يقطع ولاءه بين المؤمنين، وينشيء ولاءً مع غير المؤمنين.

إن طبيعة الوفاء بالبيعة لله والعهد مع الله والولاء لله تفرض أساساً الوفاء بذلك كله في الحياة الدنيا مع الناس، مع خلق الله، مع عباد الله، مادامت هذه كلها خاضعة لمنهاج الله قرآناً وسنة، مرتبطة بعهد الله.

فالله غنيٌّ عن العالمين. وإنما شرع الله الوفاء بالعهود والعقود في الحياة الدنيا، مادامت خاضعة لمنهاج الله، لصلاح حال الناس واستقامة أمرهم. وجعل الوفاء على هذه الشروط وفاء بعهد الله نفسه، ونقضها نقضاً لعهد الله، وصورة أمينة للوفاء مع الله وللصدق مع الله، وللولاء لله. ويظل الشرط الرئيسي لهذا الوفاء كله هو توافر ارتباط عهود الناس وعقودهم، ومواثيقهم وولائهم، وبيعتهم والتزامهم، ارتباط هذا كله بالعهد مع الله. وهذا الارتباط

يعني خضوعها كلها لأحكام منهاج الله خضوع إيمان وتصديق، وعلم ووعي، وأمانة ومسئولية، وإدراك لذلك كله.

الدكتور عدنان علي رضا النحوي

الرياض : ١٤١٠/٩/٨هـ
١٩٩٠/٤/٣م

الباب الأول

العهد مع الله وامتداده

الفصل الأول
العهـد مـع الله

١ ـ ابتداء العهد وامتداده :

ونودّ أن نأخذ الآن قبسات من كتاب الله وسنّة رسوله محمد ﷺ ، حتى نعيش في ظلال معاني العهد مع الله وآفاقه وما يترتب عليه من بيعة وولاء .

إننا نحرص كل الحرص على أن نأخذ التصور كله من منهاج الله ، وبصورة خاصة في ما يتعلق بأسس الإيمان وتصوراتها . ذلك لأن منهاج الله أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ليعالج في جملة ما يعالج أسس العقيدة والتوحيد ، وعلاقة العبد المخلوق مع ربّه وخالقه ، ولتكون هذه المعالجة والعرض ميسّرة لعباده ، يذكّرهم بها رسول الله ﷺ ، ويذكّر بها من يخاف وعيد ، ولتكون هذه القضية هي أهم ما يعرضه وهي محور ما يعرضه :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠)

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥)

١ ـ أول العهد وابتداؤه :

لقد بدأ العهد مع الله بآدم عليه السلام، وبذريته كلها إلى يوم القيامة، حيث أخذ الله منهم العهد في عالم الغيب حقّاً ثابتاً أعلمنا إياه الله، وعلمنا إياه، وجعله فطرة في كل إنسان.

فمع آدم عليه السلام :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥)

وهذا العهد كان في الجنّة، كان في قصة الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عن الأكل منها. وكان العهد والخطاب أولاً إلى آدم نفسه، ثم امتد الخطاب له ولزوجه :

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ٣٥)

وتمضي القصة على ما هو معروف في كتاب الله. وكان محور القصة والعهد في الجنة هو أن الشيطان عدو لآدم ولزوجه.

﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه : ١١٧)

ثم يتوب الله على آدم ويجتبيه ويغفر له. فيتلقى آدم من ربه كلمات :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ٣٧)

وأما هذه الكلمات فنجد بعضها على الأقل، إن لم تكن كلها،

في سور أخرى مثل سورة الأعراف:

﴿ . . . وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الأعراف : ٢٢ ـ ٢٥)

ومهما قيل في هذه الكلمات فإنها تمثل الإيمان والتوحيد، والتوبة والمغفرة، وفي سورة طه أيضاً:

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(طه : ١٢٢ ـ ١٢٧)

إنه العهد مع آدم عليه السلام، ليبلغه إلى ولده، وليكون محور عهد الإنسان في الأرض. إنه الإيمان والتوحيد بكل شروطه وأسسه. إنه الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار. إنه الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره. إنه التوبة والمغفرة. إنه اتباع منهاج الله وهداه في مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا.

ب ـ امتداد العهد إلى بني آدم كلهم :

ويمتد العهد إلى بني آدم كلهم، وذريته كلها حتى قيام الساعة.

يمتدّ العهد حين أخذه الله منهم جميعا في عالم الغيب وأشهدهم على أنفسهم شهادة بيِّنَة واضحة، شهادة ثابتة في فطرة وخلق، شهادة لا يقبل الله من أحد عُذراً أبداً في النكوص عنها:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

(الأعراف: ١٧٢-١٧٤)

فهو إذن آيات مفصلة بينة واضحة! عذران باطلان لا يجوز لأحد أن يعتذر بأيهما: ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾. فلن تقبل الغفلة عن هذه الشهادة المغروسة في الفطرة أبداً. ولا عذر لأحد في ذلك أبداً. وكذلك: ﴿.... إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم...﴾، فهو أيضاً عذر مردود على صاحبه. وتمضي آيات الله تفصل في هذا العهد، وتضع قواعده وأسسه وشروطه، حتى لا يكون لأحد عذرٌ أبداً في التفلّت من هذا الجزء أو ذاك، وقد جاء النصُّ به. ونورد كما قلنا هنا قبسات فقط، لترسم لنا نهجاً ولتنير لنا درباً:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ (يس: ٦٠، ٦١)

وهكذا يبتدىء العهد مع آدم عليه السلام في الجنة، ومع ذريته في عالم الغيب، ويحمل هذا العهدُ قضيةَ الإيمان والتوحيد بكل أسسها ومعالمها وقواعدها. وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث

الشريفة تؤكد هذا العهد، وهذا التوحيد والإيمان. ونأخذ الآن قبسات من أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به. قال فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي» (أخرجه أحمد، ومسلم في معناه)[1]

وقد جعلها الله في فطرة ابن آدم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة. فأبواه يهودانه وينصّرانه ويمجّسانه. كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» ثم يقول أبو هريرة اقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (رواه مسلم)[2]

ثم يمتدُّ عهد الله مع الإنسان، ومع الأنبياء والرسل، ومع الأمم والشعوب. فلنتابع هذا الامتداد.

جـ - الامتداد مع الرسل والأنبياء:

وبالإضافة لامتداد هذا العهد في ذرية آدم، وفي فطرة الإنسان كما رأينا، فقد تأكد العهد مع كل رسول ونبيّ، مع الرسل والأنبياء

(١) تفسير ابن كثير ج: ٢ (ص: ٢٦١). دار المعرفة - بيروت - صحيح مسلم: كتاب صفات المنافقين (٥٠). باب (١٠) حديث (٢٨٠٥/٥١، ٥٢، ٥٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب القدر (٤٦). باب (٦) حديث (٢٦٥٨/٢٢).

كلهم، مع الإنسان، مع بني آدم كلهم:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾. (الأحزاب: ٧، ٨)

لقد كان ميثاقاً مع النبيين كلهم، ممن قصه الله علينا وممن لم يقصصه، ومضى العهد والميثاق مع كل رسول، وما من أمة إلا جاءها رسول:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النحل: ٣٦)

د ـ مع الأمم والشعوب كلها، أقوام الرسل والأنبياء:

ثم يمتد العهد والميثاق من النبيين والرسل إلى الأمم والشعوب، إلى أقوام الأنبياء والرسل، ومع كل امتداد تأكيد وتوضيح، وتثبيت وتذكير، ولقد أكد القرآن الكريم بقوة على العهد والميثاق مع بني إسرائيل، العهد الذي شمل أمور حياتهم وعلاقاتهم، نورد منها قبسات ونماذج:

د ـ ١. مع بني إسرائيل:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (البقرة: ٨٣)

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا . . . ﴾ (المائدة : ١٢)

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ . . . . ﴾ (النساء : ١٥٤)

د ـ ٢ . مع النصـــارى :

ثم يمتد العهد والميثاق إلى النصارى كذلك:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾. (المائدة : ١٤)

د ـ ٣ . أهل الكتاب عامة :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾.
(آل عمران : ١٨٧)

د ـ ٤ . مع أصحاب محمد ﷺ ومع أُمته :

ويمتد العهد إلى أَصحاب محمد ﷺ، وكذلك يمتدُّ إلى أُمته كلها حتى يوم القيامة:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (المائدة : ٧)

ويقـول ابن عطية في تفسـيره: «نعمـة الله اسم جنس يجمع الإسلام، وجمع الكلمة وعزة الحياة، وغنى المال، وحسن المآل، هذه كلها نعم هذه الملة. والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي ﷺ في

بيعات العقبة وبيعة الرضوان، وكل موطن قال الناس فيه سمعنا وأطعنا»[1] فهو إذن عهد المؤمنين وميثاقهم حتى قيام الساعة. وهذا العهد مرتبط بالعهود السابقة كلها، وهي كلها مرتبطة به.

٢ - العهد بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم:

ثم أخذ الله من النبيين كلهم ميثاقهم على نبوة محمد ﷺ، نبوة خاتمة، وميثاقاً وشهادة شهدوا بها كلهم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران: ٨١)

هذا العهد الثابت الحق، العهد الموثق بالشهادة، عهد الله مع آدم عليه السلام امتد من الجنة حتى هبط آدم إلى الأرض، وامتد في ذريته كلها في عالم الغيب، وامتد في الأرض مع بني آدم كلهم، ثم مع النبيين وأقوامهم، حتى كانت النبوة الخاتمة وكان حواريوها وأصحابها والمؤمنون، فمضى معهم العهد ممتداً إلى يوم القيامة.

وجميع تفاصيل هذا العهد والميثاق تدور حول محور واحد، حول الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون كله، شهادتان ثابتتان: «**شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أنَّ محمداً رسول الله**». ويجمع الشهادتين آيتان في كتاب الله سبق ذكرهما ونعيدهما للتأكيد والتذكير:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

---

(١) تفسير ابن عطية: ج ٤ (ص: ٣٧٦).

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف :١٧٢)

فهذه هي شهادة أن لا إله إلا الله .

والآية الثانية :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران: ٨١)

فهذه الشهادة الثانية ، شهادة : «أن محمداً رسول الله» .
«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله» .

٣ ـ طبيعة العهد ومحوره وميادينه :

هذا العهد والميثاق، هذا العهد الموثّق بالشهادة، والميثاق الحق الثابت، مع آدم عليه السلام، ومع ذريته وهم في عالم الذر، ومع بني آدم في الحياة الدنيا، ومع كل أمة، ومع كلِّ نبيّ ورسول، هذا العهد هو العهد الذي يجب أن تنبثق منه عهود ابن آدم كلها ومواثيقه، هو العهد الذي يجب أن ترتبط به عهود الحياة الدنيا كلها وتقوم عليه .

من هذا العهد تنبثق معاني الولاء الأول، الولاء لله سبحانه وتعالى، ومن هذا الولاء ينبع كل ولاء في حياة الإنسان، وكل معاني البيعة والوفاء، ومعاني السمع والطاعة . ومنهاج الله يعرض العهد والميثاق مفصلاً، ويعرض الولاء، ويعرض البيعة والسمع والطاعة، عرضاً ربانياً معجزاً حتى يتيسَّر لابن آدم ممارسة ذلك كله في واقع حياته، في جميع ظروفه وأحواله، في جميع الأجيال والعصور، في جميع الشعوب والأقوام .

وما كان الله ليترك خلقه وعباده دون نور يهدي، وهداية تقود، ودرب مستقيم إلى الجنّة، في دين ميسّر، وقرآن منزَّل، سيكون عليه الحساب، ويكون به التذكير لمن يخاف وعيد:

﴿ . . . فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥ ﴾ (ق : ٤٥)

فالشهادتان هما محور العهد مع الله، ومنهاج الله كله ـ قرآناً وسنّة ـ هو فحوى العهد ونهجه، وهو بنوده وشروطه، وهو التزاماته وتكاليفه. وحتى يسهل علينا تصور هذا العهد الأول في حياة الإنسان، يمكن أن نحدد الميادين الرئيسة التي يشملها العهد:

أولاً: الإيمان والتوحيد بجميع معانيه وظلاله التي يعرضها القرآن الكريم والسنّة المطهرة: إيمان ويقين بالله الواحد الأحد بجميع أسمائه الحسنى وصفاته، والملائكة والنبيين والكتب المنزلة والقرآن المهيمن عليها، واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره، ومحور ذلك كله الشهادتان .

ثانياً: منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ ليمثل الأمانة التي يحملها الإنسان في الحياة الدنيا، والخلافة التي عُهدَ له بها، والعبادة التي خلق لها، والعمارة التي أمر بها، ثم هي ميدان الابتلاء والتمحيص في الحياة الدنيا.

ثالثاً: امتداد العهد والبيعة والولاء إلى واقع الإنسان في الحياة الدنيا. فلا تقوم العهود إلا مرتبطة بالعهد الأول، ولا بيعة إلا مرتبطة بالبيعة الأولى، ولا ولاء إلا مرتبطاً بالولاء الأول.

وبذلك تمضي حياة الإنسان المؤمن في جميع أحواله وظروفه،

وعلى تبدل واقعه واختلافه، يجد في إيمانه وتوحيده، وعهده وبيعته، وولائه ووفائه، يجد ما يعالج به هذا الواقع أو ذاك على نور وبيِّنة وهدى من الله.

إن الله غنيٌّ عن العالمين. إن الله أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم، وأخذ من النبيين ميثاقهم على نبوة محمد ﷺ، إن هذا العهد، العهد الأول، قام لصلاح حياة الإنسان وحمايتها، ولتمتدّ العهود والمواثيق في واقع الإنسان، في حياته الدنيا، تبنى علاقاته، وتوجه نشاطه، وتعينه على تحقيق الأمانة والخلافة والعبادة لله سبحانه وتعالى. ومن خلال ذلك كله سيمر في مواقف ابتلاء وتمحيص، لتمضي سنة الله في الابتلاء، وليمحص المؤمنين، فما كان الله ليذر المؤمنين على ما هم عليه، وليميز الخبيث من الطيب. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني
عهـــد النبـوة

لقد كان عهد النبوة أولاً هو عهد الله إلى أنبيائه بتلقي الوحي والرسالة، وبالقيام ببيانها وبلاغها، وجمع الناس عليها. ثم كان عهد النبوة ما أخذه الأنبياء من أصحابهم وحوارييهم من عهود على الاتباع والتبليغ والبيان.

وفي هذا العهـد أو ذاك كان هناك تكاليف أخرى يقوم عليها عهد، تكاليف تحتاجها المهمة، وتستدعيها عزائم النبوة، ويتطلبها الواقع الذي تمضـي به دعوة الله. ولنأخذ أمثلة سريعة، وقبسات مشرقة، من كتاب الله:

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ (البقرة : ١٢٥)

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ . . .﴾ (الأعراف : ١٣٤)

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (البقرة : ١٢٤)

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾ (البقرة : ٤٠ ، ٤١)

وامتد عهد النبوة من عند الله عهداً موثقاً مع جميع الأنبياء والرسل، يحملون دعوة الله ورسالته إلى أقوامهم، يبلغون ويُذكِّرون:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ (الأحزاب : ٧ ، ٨)

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾
(النساء: ١٦٣ - ١٦٥)

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾
(يونس : ٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ (الشورى : ٧)

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾
(الأحزاب : ٢)

وخُتِمَت النبوَّة كلها بمحمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين. وكانت نبوته عهداً أخذه الله سبحانه وتعالى من جميع الأنبياء المرسلين، وأشهدهم، وأمرهم بالشهادة على نبوَّة محمد ﷺ،

وشهد معهم :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ (آل عمران : ٨١)

فهذا عهد الأنبياء كلهم مع الله ليشهدوا ويُقرُّوا بنبوة محمد ﷺ ، حتى أصبحت هذه الشهادة ركناً أساسياً من «عهد الله» ، رُكناً ممتدّاً مع الزمن كله منذ آدم عليه السلام حتى تقوم الساعة وارتبطت هذه الشهادة بشهادة التوحيد كما ذكرنا سابقاً :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ .

(الأعراف : ١٧٢ ـ ١٧٤)

فيرتبط بذلك عهد النبوة بعهد الله ، حتى يصبحا عهداً واحداً ثابتاً في حياة الإنسان ، عهداً مُتميِّزاً يقوم على شهادتين تملآن الكون : شهادة أنْ لا إله إلا الله وشهادة أنَّ محمداً رسول الله :

«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله»

إنه عهد واحد ثابت متميز، عهد يملأ الكون فكيف لا يملأ قلب الإنسان وأَحْناءَه . عهد يملأ فطرة الإنسان التي فُطِر عليها . عهد قامت عليه الشهادتان والإقرار. ومن ذلك كله قامت عليه البيعة والولاء :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١١١)

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٠٧)

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود : ١١٣)

إنه عهد واحد ثابت متميز، ومنه تمتد سائر عهود ابن آدم في الحياة الدنيا، ومنه تأخذ قوتها وحقها، وعلى شرعه يجب أن تقوم بنودها وشروطها، حتى يصح الامتداد وتنال القوة والحق. وبذلك يمتد العهد والبيعة والولاء، وينهض العزم والنيّة والوفاء:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل : ٩١)

ويرتبط عهد النبوّة إذن بعهد الله حتى يكونا عهداً واحداً ممتداً مع الزمن كله، مع الأنبياء والرسل حتى النبُوّة الخاتمة، لتصبح النبوة الخاتمة جامعة لعهد الأنبياء كلهم، ولتصبح النبوة الخاتمة عهداً ممتداً مع الأنبياء كلهم، ولتقوم الشهادتان، شهادتا الحق، ركناً يُبْنَى عليه دين الله، ركناً من أركانه الخمسة.

ويرتبط عهد النبوة بعهد الله، مع الزمن كله:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

٣١ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾
(آل عمران : ٣١، ٣٢)

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾
(النساء : ٨٠)

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾
(النساء : ٦٥)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كل أُمتي يدخلون الجنة إلا من أَبى. قالوا: يارسول الله ومن يأبى؟ قال: من أَطاعني دخل الجنَّة ومن عَصَاني فقد أَبى» (رواه البخاري)[1]

(١) صحيح البخاري: كتاب (٩٦). باب (٢).

الفصل الثالث
امتداد العهد إلى واقع الإنسان

إن العهد مع الله، كما رأينا، تدور تفاصيله كلها حول الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون كله. حقيقة الإيمان والتوحيد وما يترتَّب عليهما من تكاليف وواجبات. ولكن الله غنّي عن العالمين. فلا يكون العهد إذن إلا لصلاح الكون، ولصلاح حياة الناس في الأرض. فلابد إذن من أن يمتدَّ العهد بمعناه وبشروطه إلى واقع حياتهم في الأرض. ولذلك شرع الله لعباده الوفاء بالعهود والعقود في الحياة الدنيا، وفاءً نابعاً مرتبطاً بوفاء العبد المخلوق لربه وخالقه، حتى يصبح الوفاء في واقع الناس غنيّاً قوياً، وحتى يصلح حال الناس، وحتى يستقيم أمرهم. فأصبح الوفاء بالعهود في الحياة الدنيا صورة للوفاء مع الله، والصدق في الحياة الدنيا صورة للصدق مع الله، والولاء بين المؤمنين صورة للولاء لله، حتى يظلَّ الشرط الرئيسي لهذا الامتداد والارتباط بين عهد وعهد، وصدق وصدق، ووفاء ووفاء، وولاء وولاء، هو خضوع هذه كلها في الحياة الدنيا لمنهاج الله، وقيامها كلها على قواعده وأسسه، وخضوعها بذلك لقواعد الإيمان والتوحيد.

ولا تصلح حياة الناس في الأرض إذا تفلّت الناس من عهودهم ومواثيقهم. إنهم يصبحون أشدَّ خطراً من الوحوش، وأقسى من أشرس المجرمين. إنه فساد كبير في الأرض. ومن أجل صلاح حياة الناس تصبح كلمة «عهد الله» ممتدة في واقع الحياة، لتشمل عهود النـاس فيما بينهم، إذا قامت على أساس من منهاج الله. ولنأخذ قبسـات من منهـاج الله تضيء لنـا الدرب، وتؤكد هذا الامتداد والارتباط، وترسم لنا معالم النهج:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.
(الرعد: ١٨ ـ ٢٤)

هكذا يمتدّ عهد الله في حياة الإنسان إنه **أولاً**: عهد قام على أساس الاستجابة لله: ﴿للذين استجابوا لربهم...﴾ **وثانياً**: عهد قام على أسـاس الحق الـذي أنـزلـه الله على عبده محمد ﷺ. فمن خصائص الإيمان، ومن خصائص الاستجابة لله، الوفاء بالعهد: ﴿الذين يوفون بعهد الله...﴾ إنه عهد يقوم على علم، على علم بالحق الـذي أنـزل، وبـالتصديق به، وبحفظ الصلات التي يدعو لها

ويقيمها، وحماية الروابط الإيمانية التي تنشأ عن عهد الله، وتقوم على أساس من منهاج الله. ويمتد العهد هذا الامتداد، والمؤمن الذي يحمله يشعر بالخشية من الله والخوف من سوء الحساب، حتى كأن هذه الخشية قوة من قوى الإيمان، تحفظ الوفاء وتوثق الروابط والصلات، وتجمع القلوب، وتشد العزائم على الوفاء بعهد الله الممتد إلى واقع الإنسان، حتى يمضي صابراً على ما يلقاه، عابداً مقيماً للصلاة، منفقاً مما رزقه الله، في سبيل صدق الوفاء وأمانة الأداء.

أما الذين ينقضون العهد فلهم شأن آخر:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥)

﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧)

إنها خسارة كبيرة: ﴿أولئك هم الخاسرون﴾، وفساد في الأرض: ﴿ويفسدون في الأرض﴾، وقطع للصلات التي أمر الله بها: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل...﴾.

وتمضي الآيات الكريمة في كتاب الله تعرض لنا هذا الامتداد العميق في واقع الإنسان وحياته:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ
هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام : ١٥٢ ، ١٥٣)

هكذا يأتي الأمر من عند الله ، متناسقاً مترابطاً مع سائر قواعد منهاج الله : ﴿. . . . وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ هذا الأمر من عند الله مع سائر الأوامر: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم . . . ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط . . . ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى . . .﴾ ، وهنا تبرز أهمية التناسق والترابط في عهد الله في واقع الإنسان . فلابد إذن من أن يقوم العهد على منهاج الله ، وأن يرتبط بالعهد الأول ، العهد الموثق مع الله :

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الأعراف : ١ ـ ٣)

هذا هو الأمر العظيم : ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم . . .﴾ وكذلك : ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ . إذن هو اتباع لمنهاج الله قرآناً وسنة . وكيف يكون الاتباع إذا لم يكن هنالك دراسة وتدبر ، وعلم وممارسة؟! كيف يكون الاتباع إذا لم يقم هذا كله على إيمان ويقين؟! ثمَّ يمتدُّ العهد في حياة الإنسان عهداً موثقاً يأمر الله بالوفاء به :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا
تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟
أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ
حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل : ٩٠ ـ ٩٧)

إن الآية الأُولى من هذه الآيات جاءت أَمراً من عند الله، أَمراً يحمل بعض قواعد الإيمان، أَمراً بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهياً عن الفساد والشر. فهذا كله جزءٌ من عهد الله الذي أَخذه الله من آدم وذريته، وما جعل لأَحد عذراً في غفلة عنه، أو عذراً في نسيان. ثم تأتي الآية الثانية لتعرض لنا صورة امتداد هذا العهد إلى عهود الإنسان في حياته، حتى جاء النصُّ: ﴿وأوفوا بعهد الله. . .﴾، ثم جاءت تتمة الآية الكريمة: ﴿إذا عاهدتم. . .﴾ لتمد لنا ظلال عهود الإنسان في حياته الدنيا. ويقول ابن عطية في تفسيره: «وعهد الله لفظ لجميع ما يعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أَو صلة أَو مواثقة في أَمر موافق للدين»(١). أَما لفظة الأَيمان في قوله تعالى: ﴿. . . ولا تنقضوا الأَيمان. . .﴾، فالأَيمان هنا هي العهود التي يُقرَن بها أَيمان تأكيداً لها ولأهميتها. وهذه الآيات

(١) تفسير ابن عطية: ج ٨ (ص: ٤٩٨).

الكريمة حق ماضٍ إلى يوم القيامة، لا يتعطل عملها ولا تتوقف ممارستها في جيل دون جيل. فعهد الله هنا يشمل ما عاهد عليه الصحابة رسول الله ﷺ، وتشمل ما عاهد عليه المسلمون خليفة رسـول الله، وتشمل ما تنشأ من عهود في حياة المسلمين، عهود قائمـة على منهـاج الله، مرتبطة بالعهد الأول، نابعة منه. وهي تشمل عهود التجارة والسياسة والصلات وغير ذلك مما يتجدَّد في حياة الناس. ويقول عبدالله بن عمر: «... وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته...»[1]. وتظل هذه الآيات الجامعة تؤكد على الوفاء بالعهود بأسلوب وبآخر، حتى يصبح نقض العهود كبيرة في حياة الناس: ﴿وأوفوا بعهد الله...﴾، ﴿ولا تنقضوا الأيمان...﴾، ﴿ولا تكـونـوا كالتي نقضت غزلهـا...﴾، ﴿ولا تتخـذوا أيـمانكم دخـلاً بينكم...﴾، ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا...﴾! تأكيد بعد تأكيد، وأسلوب بعد أسلوب، أمر ونهي، وحضٌ وتوجيه، كل ذلك حتى تبرز أهمية الوفاء وخطورته في دين الله. ثم تهديد ووعيد ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾.

ونقض العهـود واتخـاذ الأيمان بها دخـلاً وغدراً هو صورة من السقوط وزلة القدم، وصورة كذلك من الصدّ عن سبيل الله: ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم... فتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله...﴾.

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ (ص: ٥٨٤).

ولابد من أن نشير هنا إلى ضرورة إزالة أي التباس في فهم معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها...﴾، وبين قوله: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم...﴾[1]، وحديث رسول الله فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال:

«إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني»[2].

فكلمة الأيمان الأولى مرتبطة بعهود ومواثيق، والتزامات تمضي مع الحياة، ومسئوليات. فمحورها إذن هو العهد وشروطه ومدى خضوعه لمنهاج الله في بنوده وقضاياه. ولا تكون الأيمان هنا مقصودة بذاتها، ولكنها تأتي لتأكيد العهود وبعث الطمأنينة وتشديد العزيمة على الوفاء بها. أما الأيمان الأخرى فهي أيمان لا ترتبط بعهود ومواثيق. فهي وحدها التي يمكن أن يتحلل منها الإنسان بكفارة يمين. وبغير هذا التصور يغيب عنا عظمة العرض القرآني لمعنى وفاء العهود في الإسلام، ولمنزلة العهد في دين الله، ولارتباطه بعهد الإنسان مع الله. وكيف يحلُّ نقض العهد وقد كان الله عليه كفيلا؟!

وقد قال المفسرون أقوالاً مختلفة في المعنى المقصود في كلمة: «عهد الله». فقال الزمخشري: هي البيعة لرسول الله. وقال قتادة

---

(١) المائدة: ٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ (ص: ٥٨٣). صحيح البخاري فتح الباري - دار المعرفة ج ١١ (ص: ٥١٦) حديث (٦٦٢١). صحيح مسلم - رئاسة البحوث - ج ٣ (ص: ١٢٦٩)، حديث (١٦٤٩).

ومجاهد: هي فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر. وقال ميمون بن مهران: الوفاء لمن عاهدته مسلمًا أو كافراً فإنما العهد لله، وقال الأصم: الجهاد وما فرض في الأموال من حق. ونهى الله سبحانه وتعالى عن نقض العهود الموثقة بالأيمان تهمًّا بها بعد توكيدها أي توثيقها باسم الله وكفالة الله وشهادة الله ومراقبته[1].

والحقيقة الواضحة أن هذه الآيات حقٌّ مطلق نزلت للإنسان في جميع عصوره وأجياله، ولجميع أجناسه وشعوبه، وجميع ظروفه وأحواله فإن رَوَى بعضُهم أنها نزلت بمناسبة محدَّدة، فإن معناها وممارستها في واقع حياة الإنسان لا ينغلق على تلك المناسبة، ولا ينحصر في باب واحد من الأبواب التي سبق ذكرها. ولكنها، كما يذكر معظم المفسرين، تدور حول جميع العهود التي تقوم على منهاج الله، المرتبطة بالعهد الأول مع الله، عهد الإيمان والتوحيد، ولا دليل من كتاب أو سنَّة على أنها نزلت في سبب معيّن تنحصر فيه ممارستها.

وما ذكره بعض المفسرين من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، فإنه لا يتعلق بموضوع هذه العهود:

فعن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا

(١) البحر المحيط لأبي حيان. ج ٥ (ص: ٥٣٠ / ٥٣١).

قــوة» (أخرجه أحمد ورواه مسلم عن ابن أبي شيبة)[1]

ويقول ابن كثير: معناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الـذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإنه في التمسك في الإسلام كفاية عما كانوا فيه[2]. فواضح أن الموضوع مرتبط بواقع المسلمين. فإذا كان المسلمون أمةً واحدةً قادرة على النهوض إلى جميع التكاليف الشرعية، من حماية ديار المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ومن حمل الدعوة في الأرض والجهاد في سبيل الله من أجل ذلك كله، ومن بناء الجيل المؤمن على أساس من منهاج الله، إذا توافر هذا كله، وتوافر الغَناء عن الأحلاف، فإن الأحلاف لا يعود لها دور وحاجة في حياة المسلمين. وأما إن نشأت حاجة في أرض من أرض الإسلام، فإن الإسلام يزيد هذا الحلف قوة وشدة لنصرة دين الله، كما سيرد في فصل آخر.

هذا هو الارتباط والامتداد في العهود في حياة الإنسان، حتى تكـون نقيّة خالصـة من عصبيات الـدنيا، من روابط الجاهلية، صافية من هوى ومصـالح، طاهرة من دنس ورجس. ويمضـي النقاء والصفاء في عهود الله حتى لا تكون الأيمان دَخَلاً بين الناس في العهـود ﴿. . . ولا تتخـذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها. . .﴾، فتجيء تأكيداً لآية قبلها: ﴿. . . تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة. . .﴾ ثم تتبين الحكمة من ناحية،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة (٤٤). باب (٥١). حديث (٢٥٣٠/٢٠٦).

(٢) ابن كثيرج ٢ (ص: ٥٨٤).

وتتبين حقيقة المعاناة النفسية وغير النفسية مما يلقاه الإنسان أثناء ممارسته الإيمانية في تنفيذ «عهود الله»، ﴿إنما يبلوكم الله به. . .﴾! فهو ابتلاء وتمحيص، وتربية وإعداد!

إن الوفاء بالعهد الممتد هو أساس صلاح المجتمع المؤمن، وأساس صلاح الأمة والجماعة، وأساس صلاح حياة الناس، وبغيره يتفلّت الناس كالوحوش، تدفعهم الشهوة والأثرة والمصالح، وتربطهم العصبيات الجاهلية، والمصالح والأهواء، وتتقطع الروابط الإيمانية، وتنهار دعائم، وتفسد تجارة واقتصاد، وتختلط السياسة، ويعم العدوان والظلم، ويمتد الفساد. ما أسوأ حياة الإنسان حين يتفلّت هو من عهوده، أو حين تتفلت عهوده من روابطها مع الله، أو حين لا تقوم على أساس من منهاج الله.

الوفاء بالعهد الممتد عمل صالح يقوم به المؤمن، فتستقر بذلك أسس الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، ويقوم الجزاء الحسن من عند الله بأحسن ما كان يعمل الإنسان المؤمن.

أما المشركون فقد يحافظون في حياتهم على شيء من العهود المبتوتة الصلة بالعهد مع الله، يحافظون على الوفاء بها في قطاع من حياتهم، حفاظاً على مصالح دنيا، وشهوة عدوان. ويصبح الوفاء مظهراً من مظاهر الإدارة أكثر منه عقيدة ونهج حياة مع خلق الله. إنهم يجعلون من النظام والإدارة والقانون، حماية لباطل أحياناً أو إقراراً لحرام، أو تثبيتاً لظلم، من خلال عدالة مشوهة وحرّية ظاهرية في بعض ميادين الحياة.

وتمضـي الآيات الكـريمة تستعرض امتداد عهد الله في واقع حياة الإنسان في الأرض:

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ ﴾. (الإسراء : ٣٤)

نعم! إن العهد كان مسئولاً! ومن السائل ومن المحاسب؟! إنه الله رب العالمين! ويقول ابن عطية[1] عن «العهد» في تفسيره للآية الكريمة إنه «لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة» وكذلك:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة : ١٧٧)

فارتبط العهـد هنا بالبر والإيمان كله، والإنفاق كله، والعبادة كلها، وارتبط كذلك بالصبر في الحالات كلها!

وكذلك:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المؤمنون : ١ ـ ١١)

---

(١) تفسير ابن عطية. ج ٩. (ص : ٨٠).

أَما هنا فقد ارتبط العهد بالأَمانة: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعـون﴾، الأَمـانـة التي حملها الإنسان. وامتد عهد الله مع هذه الأَمـانـة العـظيمـة في حياة الإنسـان إلى: الخشوع في الصلاة، والإعـراض عن اللغـو، والزكاة، وحفظ الفروج، امتداداً عظيماً يشمل حياة الإنسان وميادينها المختلفة.

وتعود هذه الصورة العظيمة تشرق علينا في سورة المعارج: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ إلى ان يقول سبحانه وتعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ (المعارج: ٢٣ ـ ٣٤)

ولو استعرضنا امتداد «عهد الله» في حياة الإنسان على الأَرض لوجدنا أَنه امتداد واسع عميق، يغطي جميع ميادين حياة الإنسان، ويغطي جميع ظروفه وأَحواله، ويغطي العصور والأَجيال. ويظل هذا الامتداد ماضياً حتى تقوم الساعة، ويقوم الحساب.

ولو استعرضنا امتداد «عهد الله» مع القبسات التي عرضناها من منهـاج الله لوجـدنـا صورة عظيمة، حين يمتدُّ عهد الله في حياة الإنسـان مع قواعـد أساسية نذكر أهمها: الاستجابة لله، العلم بمنهاج الله والتصديق به والعمل به واتباعه، والدعوة إليه وبلاغه، والصلات الإيمانية وخشية الله والخوف من سوء الحساب، والصلاة والعبادات كلها، والإنفاق، ورعاية اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط والقول الحق، والعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء

والمنكر، إلى غير ذلك مما مرّ معنا. إنه امتداد واسع عظيم.

ويمتد كذلك إلى بناء الحياة الزوجية وأُسسها:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء: ٢١)

هكذا تقوم الحياة الزوجية في الإسلام على ميثاق غليظ، وعهد أكيد، متصل بالعهد مع الله، خاضع لمنهاج الله.

ويأتي الأمر العام من الله سبحانه وتعالى يخاطب عباده المؤمنين خطاباً جلياً قوياً.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴿١﴾﴾ (المائدة: ١)

ويروي ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني بالعقود العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، وقال: العقود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره»[(١)]

وإذا كان هذا العهد، عهدُ الله، العهد الذي يقوم على منهاج الله، العهد الذي يرتبط بالعهد الأول مع الله، إذا كان هذا العهد يمتد هذا الامتداد في حياة المؤمنين، فإنه يمتد كذلك في حياة الإنسان سواء أكان الإنسان الذي يربطك به العهد مسلماً أو كافراً. ذلك لأن الحياة تمضي على سنن الله التي قضت أن تقوم بين المسلمين والمشركين عهود وعقود في ظروف خاصة. فالوفاء بهذه

(١) تفسير ابن كثير. ج ٢. (ص: ٣).

العهود يجب أن يكون نابعاً من منهاج الله، مرتبطاً بالعهد الأول مع الله، مادام العهد نفسه مرتبطاً بمنهاج الله نابعاً منه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ (التوبة: ٤)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ (التوبة: ٦ - ١٠)

والسؤال هنا استفهام إنكاري. كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟! إن الأصل أن لا يكون هنالك عهد لأنهم هم الذين قطعوا عهدهم مع الله بكفرهم وشركهم، هم الذين نقضوا العهد الحق الثابت مع الله، العهد الذي أعطوه لله، وأخذه الله منهم: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...﴾ إنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصَدُّوا عن سبيله، وهم لذلك لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، ولذلك فهم المعتدون. إلا من استجارك «فأجره حتى يسمع كلام الله» لتحاول ردّه إلى فطرته، فعسى أن يهديه الله، وكذلك ﴿أبلغه مأمنه﴾ بعد ذلك دون أن تعتدي عليه أو تؤذيه. وكذلك أولئك الذين عاهدهم المسلمون قبل ذلك، واستقاموا على عهدهم ولم يظاهروا عليهم أحداً.

ترسم لنا هذه الآيات الكريمة مثلاً ونموذجاً لوفاء المؤمن بعهده، ووفاء الأمة بعهدها، مادام العهد مستوفياً شروطه الإيمانية، مرتبطاً بالعهد مع الله، نابعاً منه.

وتقول أم هانىء بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فَرَّ إلـيَّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهْب المخزومي. قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي. فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقتُ عليهما باب بيتي، ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين. وفاطمة ابنته تستره بثوبه. فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلَّى ثماني ركعات من الضحى ثم انصرف إليّ فقال: «مرحباً وأهلاً ياأم هانىء، ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخَبر عليّ، فقال: «قد أجرنا من أجرت، وأمّنا من أمَّنتِ، فلا يقتلهما».

وفي صحيح مسلم أن أم هانىء بنت أبي طالب قالت: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب قالت: فسلمتُ فقال: من هذه؟ قلت: أم هانىء بنت أبي طالب. قال: مرحباً بأم هانيء. فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً بثوب واحد. فما انصرف قلتُ: يارسول الله! زعم ابن أمي علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلاً أجرتُهُ، فلان بن هبيرة. فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت ياأمّ هانىء». قالت أم هانىء: وذلك ضُحى».

(رواه الخمسة وأحمد ومالك والدارمي)[1]

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الغسل (٥) باب: التستر على الناس، كتاب الصلاة (٨) باب الصلاة في ثوب واحد. وكتاب الجهاد (٥٦)، وكتاب =

هكذا كان الوفاء بالعهود في حياة المسلمين، وفاءً ينبع من إيمان وتوحيد، وعلم بمنهاج الله. وأنّى التفتَّ في تاريخ المسلمين، أيام رسول الله ﷺ، وصحابته والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، تجد هذه السمة البارزة في حياة الأمة المسلمة، سمة الوفاء بالعهود وفاء وعي وإيمان وعلم. فلقد أوفى رسول الله ﷺ لقريش بعهده معها بعد صلح الحديبية، حتى نقضت قريشٌ عهدَها ذاك وشاركت في الاعتداء على خزاعة حليفة رسولِ الله ﷺ.

وأوفى رسول الله ﷺ بعهده لليهود في المدينة، حتى غدروا هم، قبيلة قبيلة، بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة. وظل الوفاء بالعهود سمة بارزة في حياة المسلمين، ما تمسّكوا بدينهم إيماناً وعلماً وممارسة.

وعلى النقيض من ذلك تجد في حياة أهل الكتاب والكافرين والمشركين والمنافقين. فنقض العهود والخيانة سمة بارزة في حياتهم، سمة أفسدت حياة الناس، ونشرت الفتنة والشرّ والعدوان. وانظر

= الأدب (٧٨). صحيح مسلم: كتاب الحيض (٣) حديث (٣٣٦). وكتاب صلاة المسافرين (٦) باب (١٣) حديث (٨٢/٧١٩) والنص الثاني له والموطأ في قصر الصلاة باب صلاة الضحى. والترمذي: في الاستئذان حديث (٢٧٣٥). وسنن أبي داود: كتاب الجهاد (٩). باب (١٦٧). حديث (٢٧٦٣)، وكتاب الصلاة حديث (١٢٩٠). والنسائي في الطهارة والدارمي في الصلاة باب صلاة الضحى. وأحمد (٣٤٣/٦، ٤٢٣، ٤٢٥).

كيف يصف القرآن الكريم مواقف أهل الكتاب:
﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٥)

ولو نظرت في واقعنا المعاصر لرأيت سمة السياسة بين الدول هي الغدر ونقض العهود، وبناء عهود باطلة فاسدة، تحمل الظلم والعدوان على الشعوب، وتنهب الثروات والخيرات، حتى امتلأت الأرض حروباً ودماراً ومجازر لا تتوقف. كيف ينسى المسلمون غدر الانجليز والفرنسيين وغيرهم، كيف ينسون نقض العهود هنا وهناك، وإقامة عهود ظالمة معتدية بينهم مثل معاهدة «سايكس بيكو». أمثلة كثيرة في التاريخ لا مجال لحصرها هنا، ولكننا نشير إليها إشارة لنكشف طبيعة الكفر والشرك والنفاق:

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.
(التوبة: ١٠)

ويمكن أن نوجز ما سبق عرضه في هذا الفصل بنقاط رئيسية:

١ - إن «عهد الله» الأول يقوم على الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الكون، ألا وهي الإيمان والتوحيد.

٢ - إن «عهد الله» بعد ذلك هو كل عهد ارتبط بالعهد الأول وقام عليه وخضع لمنهاج الله، في حياة الإنسان وواقعه في الحياة الدنيا.

٣ ـ إن الله شرع لعباده الوفاء «بعهد الله» في الحياة الدنيا حَتى يصلح حال الناس وتستقيم حياتهم. وبغير هذا الوفاء تفسد حياة الناس وتضطرب كما تضطرب حياة المجرمين والوحوش.

٤ ـ يقوم العهد بناء على ذلك على العلم بالحق الذي أُنزل، والتصديق به، والتزامه، على خشية من الله، ومن سوء الحساب، وعلى صبر وعبادة وإتقان.

٥ ـ يمتد «عهد الله» إلى جميع ميادين حياة الإنسان وواقعه، حيث يقيم عهداً لله، ليوفي به ويصدق الله فيه مع الناس: القول العدل، والمكيال والميزان بالقسط، ومال اليتيم، إلى غير ذلك من أبواب الأمانة التي خُلِقَ الإنسان لها.

٦ ـ الوفاء بالعهود أمر من عند الله: ﴿وأَوفوا بعهد الله إذا عاهدتم...﴾ وبذلك ارتبطت العهود كلها بعهد الله الأول مادامت قائمة على منهاج الله.

٧ ـ جاء أمر الله بالوفاء بالعهود على صيغ شتى تحمل بمجملها جميع الظلال اللازمة لتأكيد الوفاء: من أمر بالوفاء ونهي عن نقض العهود، ومع ضرب الأمثلة بالتي نقضت غزلها، وبالنهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً وغدراً وخداعاً.

٨ ـ نقض العهد هو صورة من صور الصدِّ عن سبيل الله، وزلة القدم، وجزاؤه شر وعذاب عظيم. والوفاء قد يحتاج إلى صبر، فيكون الجزاء بأحسن ما يعمل الإنسان. والوفاء عمل صالح يجزي به الله عباده حياةطيبة وأجراً حسناً.

٩ ـ و«عهد الله» على هذه الصورة هو ابتلاء وتمحيص ﴿ . . إنما يبلوكم الله به . . ﴾ .

١٠ ـ ولا تصحُّ كفَّارة اليمين هنا مع أيمان العهود، حيث تقوم التزامات ومواثيق ومسئوليات متشابكة في الحياة، لا يحل التفلُّت منها في لحظة مفاجئة من الزمن .

١١ ـ ويمتد «عهد الله» حتى مع المشركين مادام العهد خاضعاً لمنهاج الله ، قائمًا بأمر من أموره ، وتكليف من تكاليفه ، مادام المؤمن هو الذي يقود، ونهج الله هو الذي يسود، لإحقاق حقٍ ولنصرة دين الله .

من هذا العرض والإيجاز يمكن أن نقول إنَّ «عهد الله» يمتدّ في حياة الإنسان وواقعه في الحياة الدنيا، ليشمل ويغطي ثلاث مجالات أو ميادين مترابطة لا ينفصل بعضها عن بعض ولكنها ملتحمة ، وكلها مشدودة مع الميدان الأول :

الميدان الأول: الإيمان والتوحيد بكل معانيها وظلالها. وهما محور العهد الأول، عهد الله الأول مع آدم عليه السلام وذريته وبنيه حتى تقوم الساعة .

الميدان الثاني: اتِّباع منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ اتباع إيمان وتصديق ويقين، وعلم وتدبّر، وعمل وممارسة وتطبيق ، في واقع حياة الإنسان مهما كان في ذلك الواقع من استقرار أو اضطراب ، واتباع دعوة وبلاغ ، وتربية وبناء ، وجهاد وعطاء .

الميدان الثالث: عهود الإنسان التي يقيمها في حياته الدنيا ، في أيّ ظرف من ظروفه ، في أي عصر ، ومع أي جيل ، مادامت العهود

قائمة على أساس منهاج الله متكاملة معه، متناسقة معه، وكذلك متكاملة ومتناسقة مع عهد الله الأول، مع الإيمان والتوحيد.

كذلك نرى أنّ «عهد الله» على هذه الصورة يجابه كلَّ واقع الإنسان، كلّ ظروفه وأحواله، حتى لا يكون عذر لاسترخاء وكسل، أو فتنة ودَخَل، أو وهنٍ ودجلٍ، وحتى لا يكون عُذرٌ لفلسفة وغموض ومراء. ولذلك جاءت الأوامر والنواهي على جميع الصور والأساليب مما عرضنا قبسات منها، حتى تسدَّ كل أبواب الفتنة والضعف.

جاء «عهد الله» ليصلح حياة الإنسان حتى تستقيم على أمر الله، فلا يُعقَل إذن أن تكون الأوامر والنواهي غامضة مغلقة لا يدركها إلَّا صفوة منتقاة. كلاً! إنها جلية قوية لا لبس فيها، ولاشك معها.

إنها جاءت جليّة نقية، متناسقة مع فطرة الإنسان التي فُطِر عليها فتوافرت فيها صفتان أساسيتان، حتى يسهل ويتيسَّر تلقيها من الإنسان تَلَقِّياً يجعلها أساس المحاسبة يوم القيامة:

أولاً: إنها جاءت جلية نقيّة، غنيّة قويّة، جلاء الوحي المتنزِّل من عند الله، ونقاءه وغناءه وقوّته، فلا أوضح ولا أنقى ولا أغنى ولا أقوى منها أبداً

ثانياً: إنها جاءت جليّة حين تتلقاها الفطرة السليمة التي فُطِرَتْ عليها، فتتلقاها تلقيِّ اليسرِ والوضوح، والنقاء والغناء والقوة.

ولعل هذه هي من بين أوجه الحكمة في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾ (ق : ٤٥)

ولا يفسد الجلاء والوضوح، والنقاء والغناء، والقوة والشفاء، شيء مثل فساد الفطرة في الإنسان، ثم العمل الفاسد، العمل الذي يترك على القلب نكتة سوداء من الران. ويمضي هذان الأثران في تبديل الجلاء، واليسر، والنقاء، والشفاء، وكل ذلك حتى تتحول الفطرة بعمل الإنسان إلى كفر وضلالة، ويتحول اليسر والجلاء والشفاء إلى عمى وجهالة:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾. (الإسراء : ٨٢)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (التوبة : ١٢٥)

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (فصلت : ٤٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (رواه الترمذي وقال حسن صحيح)[1]

---

(١) سنن الترمذي: كتاب التفسير (٤٨). باب (٧٥). حديث (٣٣٣٤).

فالعمل الصالح يجلو القلب والفطرة حتى يتألّقا بالإيمان ونوره، والعمل السيء يعلو على القلب بالسواد والظلمة حتى يسد منافذ النور إليه، وحتى تفسد الفطرة وتنحرف.

ونؤكد هنا أن عهود المؤمن يجب أن تكون نقيّة من الدّخَل، بعيدة عن المماراة، وإثارة المسوِّغات الباطلة والجدل الخادع، لا تحمل ظاهراً يخالف باطناً، ولا تهدف إلى خداع أو غشٍ أو نفاق، ولا تصادم قاعدة إيمانية أبداً. فقد يزيّن الشيطان للناس أن يدخلوا في عهود ومواثيق يسودها نهج غير ربّاني، أو خطة غير إيمانية، فيخلطون بين شعارات الإسلام وارتباطات غير إيمانية، من خلال زخارف عاطفية وزينة وطنية، وأحلاف قوميّة، لا ترتبط بالإسلام إلا بالشعار. فلا يكفي أن يعلن أحدٌ أن ولاءه لله، ثم يمارس ولاءات مبتوتة الصلة عن الإيمان، يزينها بزخارف وشعارات تموِّه وتضلّل. ولا يصحُّ أن يوثّق أحدٌ عرى مواثيقه مع غير المؤمنين ويوهنها مع المؤمنين، في ظلال مسوِّغات وأهواء ومصالح.

ولابد من أن نفرق بين ما يمكن أن يسمح به الإسلام من مهادنة للعدو والمشركين والمنافقين، دون أن يرافق المهادنة موادّةٌ أو ولاء، أو «مسارعة فيهم» أو خداع لا يتفق مع قواعد الإيمان، وبين عهود تبرم ومواثيق تقوم مع هؤلاء معها معاني الموادة أو الولاء أو الرضا مما حرّمه الإسلام نصّاً. وأخطر ما يمكن أن تحمل هذه العهود والدخول فيها هو المشاركة في نهج باطل من جذوره فاسد بامتداده، مما يمسّ قضايا الأمة المسلمة.

وعنـدما نتحدث عن الولاء بين المؤمنين والعهود معهم، فإنما نقصد المؤمنين بميزان القرآن والسنة، المؤمنين الذين وضح ولاؤهم لله وصدق عهدهم مع الله في أركان الإسلام ونهج الإيمان. فمع هؤلاء تكون الموالاة والموادة والتراحم.

الباب الثاني

أُسس العهود في حياة الإِنسان

الفصل الأول

عهود الإنسان وعقوده في الحياة الدنيا

١ - تمهيد :

إذا ثبتت القضية الأولى في النفوس والقلوب ثبوت إيمان وعلم وتدبّر وممارسة، يسهل علينا بعد ذلك أن نتصور طبيعة العهود التي يبرمها المؤمن في حياته كلها، في جميع الميادين التي يخوضها، والصلات التي ينشئها، والعقود التي يرتبط فيها، سواء أكان ذلك في التجارة أم الزواج أم روابط الإيمان من رحم وأخوة وموالاة وجوار ورفقة، وسواء أكان في السياسة أم الحروب والسلم أم المعاهدات، وسواء أكان في عقود إيجار واستخدام، في صغير الأمور أم في كبيرها.

إنَّ كل عهد يُبرمه المؤمن في حياته يجب أن يكون عهداً نابعاً من عهده مع الله، مرتبطاً به، ماضياً معه. وينشأ عن هذه العهود عقود تخضع بشروطها كلها لقواعد منهاج الله وأسسه، وينشأ عن هذه العقود والعهود التزام ووفاء، وصلات وولاء، وبيعة وعطاء. وبذلك يصبح الولاء والبيعة والوفاء، تصبح هذه كلها أموراً مرتبطة بالولاء لله، بالبيعة له، فيصبح كل ولاء في حياة المؤمن ولاءً نابعاً

من الـولاء لله، مرتبطاً به، ماضياً معه، ليكون جزءاً من ممارسة إيمانية صادقة واعية.

فيصبح ولاءُ المؤمنين بعضهم لبعض ولاءً نابعاً من الولاء لله، خاضعاً لشروط منهاج الله، مرتبطاً به ماضياً معه. وبذلك تصبح الأخوة في الله تحمل معناها القرآني المشرق، وتصبح ممارستها تحمل شروطها الربانية الجلية. ويصبح الارتباط بمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ هو الذي يمدُّ المؤمن بالعلم الذي يحتاجه لسلامة الممارسة، وهو الذي يغذي إيمانه الذي يحتاجه في ميدان الواقع والتطبيق، والبذل والعطاء، والصدق والوفاء.

وكذلك يصبح لعهود الحياة الزوجية عظمتها الإيمانية، ويصبح لعلاقات الأسرة والرحم والقربى امتداد إيمانيّ كريم، يعطي الحياة جمالها وبهاءها، وهي نابعة من عهد مع الله، ماضية على وفاء وعطاء، في علم صادق مع منهاج الله، وصحبة كريمة له.

ولابدّ من أن نشير هنا إلى أن العهود والعقود هي سنة في هذه الحياة الدنيا، تدور أمورها بين الكافرين والمشركين والمنافقين، وتدور على نحو متميز بين المؤمنين. فلا نعجب إذن إذا وجدنا خارج المؤمنين أناساً يتعاهدون ويتعاقدون، ويدور بينهم وفاء يختلف في درجة الصدق والالتزام من رجل إلى رجل، ومن شعب إلى شعب، ومن حالة إلى حالة. فمثل هذه العهود هي استجابة طبيعية لسنّة الله في الحياة الدنيا بين الناس. والوفاء هو استجابة طبيعيّة لبقايا من الفطرة مازالت سليمة بين الأجزاء المشوَّهة المنحَرفة. وهو

استجابة كذلك لميزان المصالح المتبادلة والأعراف الغالبة، تنتظم في صورة إدارية تحمل معها قوة القانون والسلطة.

ولقد كان بين مشركي قريش عهود يرعونها حق رعايتها، وهي عهود جاهلية، أو بقية من إرث النبوة. ولا ننسى عهود الجوار التي كانت سائدة في قريش، وعهود السقاية والحجابة، وغيرها.

ونجد مثل ذلك في شعوب أخرى وأقوام متعددين. وتمضي سنن الله في الحياة والكون حتى تتحقق كلمة الله، ويمضي عدله ومشيئته، وحكمته ورحمته:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (يوسف: ٢١)

سنظل إذن نجد بين الكافرين والمشركين والمنافقين خفقة إصلاح، لا تغني عنهم شيئاً ماداموا على الكفر، ولكنها مشيئة الله ورحمته تدفع هذا وذاك على نحو من علم الله وحكمته، حتى تمضي سننه وتتحقق كلمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وعلى عكس من ذلك قد نجد بين من ينتسبون إلى الإسلام، نقضاً لعهد، وضعفاً في وفاء والتزام. وقد يكون ذلك فورة من الفجور الذي حملته النفس البشرية في لحظة من لحظات الضعف، أو فورة ممتدة في فطرة مسّها شيء من الانحراف، سرعان ما ينكشف في مواقف أخرى، ولكن أخطر ما يصيب المسلم في أمر عهوده ووفائه هو الانفصال بين عهوده التي يقيمها في الحياة الدنيا

وبين عهده الممتد مع الله، عهده الذي فُطِرَ عليه، عهده الذي هو محور حياته في الدنيا، ومحور مصيره في الآخرة. وإن كان لهذا الانفصال من سبب فإننا نضع الجهل بمنهاج الله، وضعف مصاحبته هو السبب الأول. ذلك لأن الجهل بمنهاج الله أو ضعف الصلة فيه، هو الذي يفتح الباب للسبب الثاني، ألا وهو الهوى. إنه الهوى وغلبة المصلحة وفوران الشهوة. فيدخل الشيطان من باب الجهل مع الهوى، ومع وسوسة تزيّن الباطل في هذا الموقف أو ذاك، وفي هذه القضية أو تلك.

٢ ـ معالجة منهاج الله لعهود الانسان كلها على مدى الزمان :

ولذلك عالج منهاج الله عهود الإنسان المؤمن في حياته الدنيا معالجة جليّة قوية، كما عالج عهد الإنسان مع الله معالجة مفصَّلة، حدَّدتْ شروط العهد وقواعده، وأسسه وسائر تفاصيله، مما يحتاج إليه المؤمن لسلامة الممارسة، وحسن الوفاء، وأمانة الموازنة.

ونشير في هذه المناسبة إلى أهمية عنصر الموازنة في حياة المؤمن. وتبرز هذه الأهمية حين ندرك أن الممارسة الإيمانية تدور في حقيقتها من خلال ابتلاء وتمحيص كتبه الله على بني آدم، حتى يقيم عليهم الحجة يوم القيامة.

فعندما يمارس المؤمن منهاج الله في واقعه البشري، لا تنحصر ممارسته في تطبيق نصوص ثابتة تطبيقاً مباشراً على حالات متشابهة متماثلة، حتى كأنها لا تحتاج من الإنسان إلى جهد. لا! فهناك حالات تمتدُّ إلى ممارسة نصوص منهاج الله على وقائع متجددة في

الحياة، وأحداث ممتدة فيها، تحتاج إلى مهارة في الاجتهاد، وأمانة في الموازنة. ويقوم ذلك كله على: سلامة الإيمان وقوته، وصفاء النيّة وحسن التوجه إلى الله، وقوة العلم في منهاج الله والواقع الذي تدور فيه الممارسة، ومدى التزام المؤمن لحدوده وأمانته ومسئوليته، وكذلك على الوسع والطاقة.

إن هذه الممارسة الممتدة الواسعة هي التي ينشأ عنها الاختلاف الجائز والمباح، إذا استوفى العناصر الإيمانية التي عرضناها آنفاً، وهي التي ينشأ عنها ضرورة الاجتهاد وضرورة الموازنة.

وكان من رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم في متاهة، وإنما أنزل إليهم منهاجاً ربانياً ليله كنهاره لا يزيغ عنه إلا هالك. ولقد فصّل لنا منهاج الله قواعد العهود في الحياة الدنيا وربطها في جميع حالاتها بقواعد منهاج الله، وبالعهد الثابت مع الله.

ولقد جاء منهاج الله ليعالج واقع الإنسان على أساس من الهدى والإيمان. جاء منهاج الله قرآناً وسنة ليعالج واقع الإنسان في جميع عصوره وأجياله، وفي جميع ظروفه وأحواله. جاء ليبين للإنسان ما يحلّ له وما لا يحلّ له، وليبينّ ما كان فيه شبهة حتى يتبرأ الإنسان منه. وجاء كذلك ليبينّ نهجاً في المعالجة وأسلوباً في تناول القضايا، وجاء كذلك ليقرِّر قواعد ومبادىء ثابتة في حياة الإنسان، يقوم عليها النهج والأسلوب. جاء هذا كله ليحقق الهدف البينّ في حياة الناس على الأرض، هدف الصلاح والاستقامة، هدف الإيمان والعبادة، هدف الأمانة والاستخلاف، هدف العمارة والنمو. وجاء

كذلـك ليحمي المؤمنـين من أعداء الله، وليوفر لهم وسائل القوة ومناهج العزة وأسباب النصر الذي يتنزّل من عند الله.

من هذا كله نرى أن منهاج الله جاء ليحمي صفَّ الإيمان في الأرض، وليدفـع كيد الكـافـرين والمنـافقين، وليضع بين أيدي المؤمنين علاجاً لكل حالة، ومخرجاً من كل فتنة، وحلولاً لقضايا ومشكـلات تتجـدّد في واقـع حياتهم. ولكن هذه الحلول وذاك العـلاج لا يمثل دائمًا تطبيقاً مباشراً كما ذكرنا أعلاه، وإنما يحتاج أحياناً كثيرة إلى الوسع والقدرة. ويحتاج مع ذلك إلى فهم الواقع فهمًا دقيقاً، وإلى فهم منهاج الله وتدبّره فهمًا قوياً.

لم يجيء منهاج الله لحالة واحدة في حياة الناس، حتى إذا تغيّرت تلك الحالة انتهى دور منهاج الله. لا! إن دور منهاج الله ماضٍ في كل حالة مهما كان نوعها: من قوة أو ضعف، من تجمع أو تفرّق، من غنى أو فقر، وجاء كذلك للفرد وللجماعة وللقبائل والشعوب، وللأمة الواحدة. ولكن يظل هناك دائمًا في جميع الظروف والأحوال أهدافٌ ثابتة على المؤمنين أن يسعوا ويجاهدوا لتحقيقها. فليس دور منهاج الله قبول كل واقع يُبتَلَى به المؤمنون، ولا هو الاستسلام لكل عاد وغاز، ولا هو الإقرار بالأمر الواقع.

من هنـا تتميز أسـاليب الإيمان، أسـاليب منهـاج الله، أثناء ممارستهـا في واقـع الحياة. ونستـطيع أن نوجـز خصـائص هذه الأساليب بقاعدتين أساسيتين لا تنفيان التفاصيل الإيمانية الكاملة الواردة في منهاج الله، ولكنهما ترسمان لنا الخطوط العريضة المميزة لهذه الأساليب:

أولاً: إنها أساليب طاهرة نظيفة نقية، تحمل معها جميع خصائص الطهارة والنقاء. إنها لا تحمل الخداع والكذب والحيلة، إلا حيث أجاز الإسلام ذلك. ولا تجيز الغش والشرّ والفساد في الأرض. ومع طهارتها ونقائها فإنها أساليب ذكية ينبع ذكاؤها من الإيمان والتقوى. ومن العلم العميق، ومن فهم الواقع، ومن الخبرة والممارسة وطيب الزاد، ومن الوسع والموهبة.

وتبرز أهمية هذه الأساليب الذكية الطاهرة في المواقف الصعبة. **فحين توجه رسول الله ﷺ إلى بدر، أراد أن يتعرف على أخبار قريش. فوقف في طريقه على شيخ من العرب. فسأله عن قريشٍ وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم. فقال الشيخ: «لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟» فقال: رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: «ذاك بذاك؟» قال: نعم. فأخبر الشيخ بكل ما لديه من معلومات عن قريش وكذلك عن محمد ﷺ وأصحابه. فلما فرغ من خبره، قال: «ممن أنتما؟» فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه. فقال الشيخ: «ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟»**.

ولذلك جاءت أحاديث رسول الله ﷺ تعلم المؤمنين أن في المعاريض مندوحة عن الكذب. وجعل البخاريُّ لها باباً من كتاب الأدب في صحيحه أسماه باب: المعاريض مندوحة عن الكذب. وساق البخاري أمثلة على ذلك.

ثانياً: إنها أساليب نهج وخُطّة. إنها ليست «قوالب» جاهزة لحالات غيبية لا يعلمها إلا الله. إنها نهج وتخطيط يقوم على

الخصائص التي ذكرناها أعلاه، وكلها تقوم على القاعدتين العظيمتين: منهاج الله والواقع. والنهج والتخطيط يحمل ثلاث قضايا أساسية أيضاً: النيّة، والدرب، والأهداف. وكل قضية من هذه القضايا الثلاث ترتبط بالقضيتين الأخريين ارتباطاً وتناسقاً وتكاملاً، فلا تعمل الواحدة إلا مع القاعدتين الأخريين. فكيف يكون هنالك نيّة إذا لم يتحدَّد الدرب وتتحدد الأهداف؟! وكيف يصدق الدرب أو الأهداف إذا لم تتعلّق النية بالآخرة، وإذا لم تتجه في عبودية صادقة لله رب العالمين؟! إنها أساليب النهج والتخطيط المتناسق المترابط، لا أساليب القواعد المتفرّقة المتناثرة.

من هاتين القاعدتين، مع ما تحمل كل قاعدة من تفاصيل ليس هنا مكان عرضها، من هذا كله، لا من الفكر الميكيافيلي، ولا من المصالح الهائجة، والأهواء الثائرة، والشهوات المجنونة، من هاتين القاعدتين تحمل الأساليب مرونتها، وعبقرية ممارستها، وغناء تفاصيلها، وكفاية خصائصها لحالات الإنسان المتبدلة المتجددة في واقع حياته، في الحياة الدنيا.

٣ ـ امتداد الدعوة الإسلامية مع الزمان كله:

إذن لم يتنزّل منهاج الله وحياً على محمد ﷺ لحالة واحدة في حياة الناس. لم ينزل فقط للحالة التي تكون النبوة قائمة في الناس، تعلم وتربي وتنظم وتقود. إن النبوة ستنتهي. فلكل نبيّ أجل محدود، والنبوة كلها في الأرض ستختم بمحمد ﷺ، ومحمد ﷺ سيموت، خاضعاً لسنن الله الماضية في الخلق كله. ولكنّ دين الله

ماض في الأرض لا يعطله ولا يوقفه غياب النبوة. ودعوة الله في الأرض ماضية كذلك لن تتوقف، والتكاليف الشرعية ماضية لن تتعطل، وسنن الله في الكون ماضية غالبة على أمرها بإذن الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الملك القدوس له الأسماء الحسنى كلها:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (الزُمر : ٣٠)

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ (آل عمران : ١٤٤)

وستمضي دعوة الله في الأرض وسيظل الإنسان يحمل الأمانة التي عُرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان. وستظل التكاليف الشرعية ماضية في حياة الناس يُبْتَلون في تطبيقها وممارستها.

وقامت الخلافة الراشدة بعد النبوة. ولكن منهاج الله لم يأت فقط لهاتين الحالتين. فقد انتهت الخلافة الراشدة فهل تنتهي دعوة الله؟! لا إنها ماضية وأصحاب رسول الله ﷺ أحياء يرزقون، فقاموا بقدر طاقاتهم وقدراتهم إلى أماناتهم يبتلون ويمحّصون.

وقامت الخلافة في الأرض. ومضت قرون وللمسلمين خليفة. ولكنّ مركز الخليفة كان يضعف، وكان يفقد من سلطانه وسلطته. وربما أصبح في كثير من الأحيان رمزاً أو اسماً، وحمل السلطة ولاة في الأرض وسلاطين، يتقرّبون من الخليفة أو يبتعدون. وظلّ في أعماق شعور الناس واجب الالتفاف حول الخلافة مهما ضعفت، لتبقى رمزاً واضحاً، ومعلماً جلياً في حياة المسلمين.

وظلّ هذا الشعور في ضمير المسلمين، وظلّ هذا الرمز في واقع حياتهم مصدر طاقة عجيبة، طاقة تتفجرّ فجأة نوراً وقوة وخيراً، قوة تنقذ دياراً وأعراضاً، ونوراً يزيح ظلمة وظلاماً، وخيراً ينشر عدلاً وصلاحاً.

٤ ـ أهم معالم واقع الأمة الاسلامية وتبدله :

وتمـزّقت ديار المسلمـين ودار بينهم صراع واسـع مرير، خفيّ وعلنّي، وطمع فيهم كل طامع. ولكنهم كانوا سرعان ما يقفون في وجه الأحداث، فتظهر عظمة الإيمان وصفاؤه وقوته، وتظهر أهمية وجـود الأمـة المسلمـة الواحدة، وأهمية مضيّ الدعوة الإسلامية، وأهمية وجود الخليفة القائد.

لقد برز من خلال هذا التاريخ الطويل حقائق أربع، حقائق هامة أساسية في الواقع الإسلامي، وأساسية لكل نهج وتخطيط يقوم على منهاج الله، وعلى وعي الواقع من خلال منهاج الله :

أولاً : انكشـاف أعداء الله، أعداء الإسلام والمسلمين، على صورة جلية، وعـلى تصميم واسـع : الكافرون والمشركون الذين يُعلنون كفرهم وإلحادهم جهاراً نهاراً، والمنافقون الذين يستترون خلف أيِّ ستـار يجدونـه، لإخفـاء حقيقة الحقد الذي يحملونه، والعـداء الـذي يرسمـون له. واليهود الذين ملأ الحقد قلوبهم، فامتدوا في الأرض فساداً. والنصارى الذين لم يتمسّكوا بدينهم بل نبذوه في بلادهم وديارهم، وخنقوه في الأديرة والكنائس، ثم أخذوا يستغلونه في عدوان ومظالم ومصالح خارج بلادهم. لقد انكشف

هؤلاء الأعداء، وانكشف عداؤهم لله، وانكشف لقاؤهم أو افتراقهم على حرب الإسلام والمسلمين، من خلال مصالح وأهواء تلتقي حيناً وتفترق حيناً آخر.

ثانياً: ظهور الأمة المسلمة الواحدة في الأرض بصورتها الجلية القوية المتماسكة على نهج ربّاني تعهّد الله بحفظه ذكراً كريمًا: قرآناً وسنة. ظهرت الأمة المسلمة الواحدة مع النبوة الخاتمة بصورة أقوى وأثبت من أي صورة ظهرت في التاريخ البشري. ظهرت الأمة المسلمة الواحدة بصورة جامعة تجمع الناس إليها، تجمع الشعوب والقبائل. وأصبحت هذه الأمة هي التي تحمل الخير والهداية في الأرض، فأصبحت بذلك خطراً على الشرّ، خطراً على الفساد في الأرض، خطراً يدعو الأعداء إلى التجمع للكيد الممتد على قدر ما تسمح به المصالح الدنيوية من لقاء. وأصبح وجود الأمة الواحدة خطراً يهدِّد أعداء الله فيسعون إلى إزالته، ومصدر قوة غنيةٍ تمدّ المؤمنين في الأرض بأسباب العزة والنصر المتنزِّل من عند الله وحده.

ثالثاً: انطلاق الدعوة الإسلامية في الأرض، لتبلغ رسالة الله إلى عباده وخلقه، ولتبني الأجيال المؤمنة وتربِّيها وتتعهَّدها على أسس منهاج الله إيماناً وعلمًا وممارسة، ولتجمع قوى الإيمان في الأرض، وأجيال المؤمنين، يتلقون الدعوة والرسالة ويمضون بها، جيلاً بعد جيل، ولتدفع الجهاد في سبيل الله، حتى يرى الناس أن كلمة الله هي العليا، ولتمتدَّ الدعوة في الأرض كلها. بذلك تصبح الدعوة مصدراً غنيّاً بالقوة والمدَد على الزمان كله، مصدراً يخشاه

أعداء الله، ويسعون لحربه والقضاء عليه ﴿... ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾. وتمضي دعوة الله في الأرض، وستظل ماضية.

رابعاً: التفاف الأمة المسلمة الواحدة، الأمة التي تحمل رسالة الله ومنهاجه إلى عباده وخلقه، التفاف هذه الأمة حول قائد واحد هو خليفة رسول الله ﷺ. فتصبح هذه القيادة مصدراً من مصادر القوة للمسلمين في جميع فترات التاريخ. تصبح قوة يغنى بها المؤمنون، ويرهبها أعداء الله الذين يكيدون لضربها وإزالتها.

عرف أعداء الله جميعهم من خلال تاريخ طويل مصادر قوة المسلمين، ومصادر عزتهم. وكسبوا خبرة وتجارب من خلال صراع طويل ومكائد مستمرة يقودها الشيطان، حتى أخذوا يطورون أساليبهم وخططهم، ويطورون مكرهم وكيدهم. ورأوا أن من بين ما يحتاجونه هو لقاء جهودهم على مكر وكيد وشرّ، هو لقاء شياطين الأرض لتحمي فسادها وضلالها ومصالحها.

ومن قلب الظلام الحالك في العالم الإسلامي، من خلال تمزّقه وضعفه، يتسلم العثمانيون الأتراك أمانة الدعوة الإسلامية، في طريق طويل، فيمضون بها شرقاً وغرباً، ويجعل الله على أيديهم شرف فتح القسطنطينية. ويعود المسلمون في الأرض أمة واحدة، في دولة واحدة يقوم عليها خليفة للمسلمين، فتهابها قوى الأرض، وتهاب خطرها، ويدرك أعداء الله أن مصادر القوة عادت تتفجرّ غنى وقوة في حياة المسلمين: إيمان بالله تبرزه المواقع والميادين،

ودعـوة إسـلامية ممتـدة في الأرض، وجهـاد كريم، وأُمة مسلمة واحدة، وقائدٌ خليفةٌ يلتفّ حوله المؤمنون في الأرض.

٥ ـ الغارة على العالم الإسلامي والأمة المسلمة :

ويبـدأ كيد الأعـداء ومكـرهم يعمـل وهـو يحمل خبرة مئات السنـين. ويتسرب الضعف إلى واقـع المسلمـين كلهم شعـوبـاً وقيادات، على سنن ربّانية، وينحدر المسلمون من وهن إلى وهن. وبـدأ الصراع الطويل والحرب الضروس ضد الخلافة الإسلامية ودولتها الممتدة من الصين إلى المحيط الأطلسي. وبدأ أعداء الله يثبون على العالم الإسلامي في نهج مدروس وخُطة وكيد، ومكر وحقد.

وتـركـزت جهـود الأعـداء على ضرب مصادر قوة المسلمين، وتجفيف منابع الخير. فسعت بكل وسيلة لتفسد الإيمان والقلوب، وتنشر الفتنة والفساد في الأرض. وظلت هذه هي في الحقيقة قاعدة المكـر كله، في تاريخهم كله، فساد وزنا وانحلال وخمر ومخدرات ونساء. فساد يمتدّ ويتسع حتى يشمل خِبْرَةَ آلاف السنين، خِبْرة يحركها الشيطان في الأرض على يد أعداء الله حتى يضربوا بذلك القـاعـدة الأولى في حياة المسلمين، والمصدر الهامَّ لقوّة المؤمنين. وكان في ذلك ابتلاء من الله لعباده، ابتلاء يمضي على سنن الله، وتمحيص يميز الخبيث من الطيب.

ووثبـوا كذلـك ليضربوا مصادر القوة الأخرى في كيد ومكر، وخطة ونهج. وثبوا ليضربوا الأمة المسلمة الواحدة ويضربوا ديارهم

فيمزِّقوها، وليضربوا في الوقت نفسه الدعوة الإسلامية التي تبلغ وتدعو، وتبني وترعى، وتجاهد في سبيل الله.

سقطت الأندلس في أيدي النصارى على مذابح ومجازر تقودها محاكم التفتيش في عمليات إبادة وسحق وحشي. وسقطت أندونيسيا في يد هولندا بعد قرنين ونصف تقريباً من سقوط الأندلس. هجوم واضح على أطراف الدولة المسلمة، هجوم على ماليزيا وسائر مناطق جنوب شرق آسيا، هجوم يحمل الخطة والغدر حتى كتب المفكرُ بيرس من البرتغال عن الحملة على مالاقا: «... فإن محمداً محاصر ولا يستطيع أن يتوسع بعد الآن بل سيهرب بأسرع ما يمكن...». إن الحملة وحدها على مالاقا لا تشكل حصاراً أبداً. إذن كان الرجل يتحدث عن مخطط عام لا تقوم البرتغال وحدها بتنفيذه، إنما هي جهود أعداء الله، ينسِّقها الشيطان في عدوان شامل وغارة واسعة. وتحتل فرنسا بعد ذلك: الجزائر وتونس والسنغال والنيجر وساحل العاج خلال القرن التاسع عشر. ويحتل الإنجليز في الفترة ذاتها السند المسلمة، ويقضون على دولة المغول في الهند، ويحتلون عدن، ويقيمون الحماية على البحرين ومسقط والكويت، ويحتلون مصر والسودان. وفي نفس الفترة تحتل روسيا القوقاز وطشقند، وسمرقند، وبخارى، وأوزبكستان وخوكند وغيرها. وتحتل إيطاليا ليبيا.

غارة وحشية على العالم الإسلامي، ابتدأت من أطرافه، ثم أخذت تزحف إلى قلبه شيئاً فشيئاً. وأخذ أعداء الله ينهشون من دار الإسلام قطعة من هنا وقطعة من هناك، حتى أخذ العالم

الإسلامي يتمزّق، ودولة الخلافة تضعف. وبدأت المؤامرات تمتد، وضَرْبُ مصادر القوة يمضـي. ولا تعجب إذا كان رجال التنصير يُرافقون حملات الجرائم هذه، ويمهدون لعمليات الوحوش باسم الدين النصراني الذي تخلوا هم عنه في بلادهم. ورافق هذه الغارة الواسعة كل وسائل التخذيل والتجهيل، والإفساد والفتنة، وشراء ضمائر الناس وقلوبهم، ونشر الفساد الخلقيّ بكل وسائل الإفساد النـامية في حياتهم وخـبراتهم، واستمرت دولة الخلافة تنتقل من ضعف إلى ضعف حتى سميت بالرجل المريض.

في هذه الـظلمة الحالكة كان هنالك خطران رئيسـان يهددان سلامة الأمة من داخلها:

أولاً: غياب منهـاج الله عن واقــع الـنــاس، عن قلوبهم، وتصوراتهم، بالرغم من وجوده في إطار العاطفة والشعار والحماسة. فبالرغم من وجوده شعاراً يرفعه الكثيرون، فإنه لم يكن يؤدي دوره في حياة الأمة بناءً وتكويناً، وجمعاً وترتيباً. لم يعد منهاج الله يقدم العلم لقلوب النــاس، أو التصــورات الإيمانية الحقـة. فغلبت الأعـراف والعـادات والبدع والخرافات في أماكن كثيرة من العالم الإسلامي، وانتشر الجهل وامتد.

ثانياً: عدم وجود الخطة والنهج الذي تضعه الأمة أو القطر أو الجماعة على أساس من منهاج الله والواقع الذي يُفهَمُ من خلال منهـاج الله. وأصبـح غياب النهـج يضيع جهوداً كثيرة تفشل في معـالجة الواقع، وتفشل في بلوغ ما تحسبه أهدافاً ضرورية. وقد تتصادم الجهود لعدم وجود الخطة والنهج.

في هذه الحلكة المظلمة أصبح كثير من أقطار الإسلام يجابه واقعه الجديد وحده، لا يفزع لها أحد من المسلمين. وربما تسقط دار من ديار الإسلام ويذبح علماؤه فلا تبلغ أخبار ذلك إلا بعد نفاذ الجريمة والمؤامرة. وازداد الناس جهلاً في حقيقة الواقع. وأصبح مركز الخلافة نفسه معرَّضاً للخطر، وبرزت نيَّة الأعداء في ضرب آخر مصدر من مصادر قوة المؤمنين، القائد الخليفة الذي يلتفّ حوله الناس، حتى إذا زال انفرط العقد.

وانتشر الشرك في بعض ديار المسلمين على أشكال متعددة، وصور مختلفة. وأصبح الخطر لا يأتي من العدو الغازي، وإنما أصبح للشيطان جنود مقيمون في أرض الإسلام يزيدهم الجهل فساداً وتدميراً لحياة المسلمين فالتقى عدو خارجي وعدو داخليّ.

٦ ـ انطلاق الدعوة الإسلامية الحديثة لمجابهة الواقع الجديد:

وهبَّ بعض الرجال المصلحين في العالم الإسلامي يدعون بدعوة التوحيد، يدعون إلى الله ورسوله والتزام أحكامه. وكان من أوائل من قام بذلك في العالم الإسلامي الشيخ محمد بن عبدالوهاب سنة ١١٤٣هـ (١٧٣٠م)، منطلقاً من حريملاء في الجزيرة العربية، ثم من العيينة، ثم من الدرعية، حيث تبنى الدعوة معه الأمير محمد بن سعود. ثم ظهرت الحركة المهدية في السودان بدأها محمد بن أحمد المهدي بن عبدالله بحدود سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨١م). وظهرت الحركة السنوسية في ليبيا على يد محمد المهدي السنوسي، ثم أخذت الحركات الإسلامية تتابع في

العالم الإسلامي، وأخذ الدعاة ينطلقون في الأرض. وفي الهند المسلمة قام دعاة وعلماء، فدفعت الهند علماء قدَّموا حياتهم في صراعهم مع الإنجليز. وقامت حركة التبليغ في الهند، الحركة التي أسسها الشيخ محمد بن إلياس الكندهلوي سنة ١٢٨٣هـ (١٨٧٦م). وقامت ندوة العلماء في لكهنوء في الهند، الندوة التي أسسها الشيخ محمد علي المونجيري سنة ١٣١١هـ (١٨٩٦م). وأسس الأستاذ حسن البنا حركة الإخوان المسلمين سنة ١٣٢٧هـ (١٩٢٨م) في الإسماعيلية في مصر، ثم امتدت إلى العالم العربي.

لا نهدف هنا إلى عرض جميع الحركات الإسلامية التي قامت مع العصر الحديث خاصة، فهذا أمر ليس مجاله هنا. ولكننا نهدف إلى ضرب أمثلة من استجابات المسلمين للواقع الجديد الذي دفع أفراداً أو جماعات لتنهض إلى واجب شرعي. ولقد اجتهدت الجماعات واجتهد الأفراد في الأمر الذي نهضوا له، والأسلوب الذي اتبعوه. ولكن جميع الحركات أو معظمها التزمت عهداً تقوم عليه وتنهض للوفاء به، وتعاهد أفرادها على ذلك. ولقد حملت لنا مذكرات رجالها نماذج من تلك العهود، ونماذج من البيعة التي تمت. فذلك كله يردُّ إلى منهاج الله ردّاً أميناً.

ربما جابهت هذه الحركات أخطاراً كثيرة في واقع بلدها، مما شعرت معه بضرورة النهوض له. ولكننا نستطيع أن نبرز أهم الأخطار التي يفرض الإسلام على أبنائه النهوض لها:

أولاً: الغزو العسكري الذي يهدِّد الأمة كلها، وثرواتها

وأعـراضها. الغزو العسكري الذي كان يحمل معه الفساد بكل أشكاله وألوانه، والظلم والطغيان، والمجازر والدماء. غزو لا يحل للمسلم أن يستسلم له.

ثانياً: توقف الدعوة إلى الله ورسوله، وظهور حركات مناهضة للإسلام تعمل ليل نهار لمحاربة الإسلام والمسلمين. وقد تظهر هذه الحركات في تساندها وتعاونها حتى يصبح من الضروري جمع جهود الأفراد في صف مرصوص وبناء قوي. وتوقف الدعوة الإسلامية أو ضعفها أمر يحمل مسئوليته المسلمون كافة.

ثالثاً: تمزّق ديار المسلمين، وانشغال كل قطر بقضاياه، حتى أصبح من المتعذّر مجابهة قضايا المسلمين مجابهة أمة واحدة، بسبب تمزُّق الأمة في الواقع. فيصبح قيام الأمة المسلمة واجب المسلمين كافة.

لقـد ظهـرت حركات مناهضة للإسلام، بين المشركين وأهل الكتاب، وامتد خطرها إلى ديار المسلمين، وهي تنتظم في حركات دقيقـة التنـظيم، غنية الإمكـانـات: كالماسونية والبابية والبهائية والـروتـاري والشيوعية والصهيونية وكثير غيرها. وجميعها حركات قامت على دقة التنظيم والارتباط والولاء على الصورة التي يرسمها فكرهم وفسادهم.

ومـع هذه الحـركـات ظهر في البلاد الإسلامية شباب أصبح ولاؤهم للغرب أو للشرق، فكراً وحضارة وأسلوب حياة. وهؤلاء أنفسهم انتـظمـوا في هيئـات وجمعيات ونواد وحركات. وظهرت

كذلك العصبيات الجاهلية كالقومية وغيرها، يغذيها أعداء الله أو ينسجون لها فكرها ونهجها، ويمدونها بما تحتاجه، حتى تنهض في صفٍّ منتظم يرتبط بولاء وعهد.

هذا الغزو العسكري الممتد، والغزو الفكري الواسع، أدى إلى سقوط الخلافة الإسلامية في أوائل القرن العشرين، فسقط بذلك آخر مظهر من مظاهر تجمع الأمة المسلمة، وسقوط مصدر من مصادر قوتها. ولكن بقي في الأمة مع ذلك كله بقية من قوة من هذا المصدر أو ذاك، مما أوردناه سابقاً. وأخذت هذه القوة المتبقية تظهر على شكل أو آخر.

ولكن الخطر أخذ يمتد ويتسع إلى صورة لم يعرفها العالم الإسلامي في تاريخه أبداً. لقد انتشرت الفتنة في كثير من ديار المسلمين حتى أصبح الخطر من جارك وقريبك أو رحمك وصديقك. وربما أصبح الشرُّ والفساد جزءاً من قانون، وجزءاً من واقع لا تملك حقَّ إزاحته! وهاجت الفتنة والشهوات والأهواء، في غبار قاتم يحجب الرؤية السليمة.

لقد أصبح حكم الدين وتصور الإيمان يأبى على المسلم الصادق أن يستكين لهذا الغزو الممتد، أو أن يستسلم له. بل أصبح الواقع يجعل التصور الأمين يضع الواجب على كاهل كل مسلم في الأرض، ليدعو إلى الله ورسوله دعوة صدقٍ.

ولكن الفرد الواحد لا يستطيع أن يلم بقضايا الأمة كلها وحده، ولا أن يحيط بهذا الشتات، ولا أن يجمع هذا التفرُّق. فأصبح

النهـوض إلى دفع الخطر الزاحف فرضاً، ومجابهة العدو أصبحت ضرورة أسـاسية وحماية الأرض والعرض، والدار والثروة، ونقل الدعوة إلى الناس، ورعاية البناء والتربية، أصبح هذا كله وكثير غيره واجباً عاجلاً.

من أجل ذلك قامت الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، ومن أجل ذلك نَهض العهد، وأصبح الوفاء بالعهد فرضاً واجباً.

هذه قضايا أساسية في الإيمان، في الإسلام، في حياة المسلمين. جاء التكليف بها من عند الله، تكليفاً ينبع من العهد الأول مع الله، من البيعة الأولى مع الله، لتمتد في حياة الإنسان على الأرض عهداً وأمانة، وبيعة ووفاء.

٧ ـ القواعد الأساسية التي يجب التمسك بها لسلامة الدعوة الإسلامية:

من أجل ذلك يمكن أن تقوم الدعوة الإسلامية، ويمكن تسويغ تعدُّدها بتعدد الأقطار الممزَّقة في الواقع من ناحية، وبتعدد القضايا الإيمانية والإسلامية التي تقوم لها، وبتعدد الظروف والواقع والأحوال.

ولكن مهما تعددت الأقطار والقضايا والظروف، فلابدّ من أن تظلّ هناك قواعد لقاء، ولقاء أهداف ومناهج، ليقوم التعاون الأمين حتى ينهض لقاء المؤمنين على صورة تجمع الجهود الوفيّة لله.

من أجل ذلك كله، من أجل أن يصدق العهد والبيعة والولاء،

من أجل أن تتحدَّد معالم النهج اللازم للجميع، الضروري لتوفير قاعدة اللقاء، من أجل هذا كله، نضع الأسس التالية، الأسس التي نراها ملزمة للمؤمن الفرد، وللجماعة، وللدعوة عامة، وللأمة الإسلامية، في مسيرة طويلة مع التاريخ، وبدونها يضطرب العهد والبيعة والولاء[1]:

أولاً: وعي المنهاج الرباني ـ قرآناً وسنة ـ ووعي دوره وعي إيمان وعلم وممارسة، على نهج مدروس وخطة عملية تحمل مرونة التطبيق وأمانته حتى لا يظل المنهاج الربّاني شعاراً يرفعه الجميع دون أن يجد رصيده الحق في واقع الحياة، في واقع الإنسان، في واقع المسلمين، في واقع الدعاة.

ثانياً: وعي الواقع وفهمه على نهج مدروس وخُطة عملية تسهِّل دراسة الواقع من خلال منهاج الله، دراسة تيسر ممارسة منهاج الله في الواقع البشري.

ثالثاً: التدريب والإعداد والبناء على أساس ممارسة منهاج الله في الواقع، ممارسة تحمل خصائص الممارسة الإيمانية، خصائص العمل الطيّب، خصائص العمل الصالح.

رابعاً: بناء رابطة لقاء المؤمنين من خلال وعي منهاج الله والواقع، ومن خلال التدريب والبناء والإعداد، ورعاية سائر الروابط الإيمانية رعاية أمينة صادقة، ورعاية خصائص لقاء المؤمنين

---

(١) يراجع كتاب «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» وكتاب «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق» للمؤلف، لمزيد من التفصيلات.

رعاية أمينة صادقة كذلك، في عملية بناء وإعداد وتكوين: تنمية الإيمان والتوحيد، والعلم والممارسة، الامتداد في الأرض دعوة وجهاداً، تنمية قدرات النهج والتخطيط ووضع أسس النهج الذي ينمو مع الممارسة والعمل والخبرة، إحياء العهد مع الله والميثاق، العهد الممتد إلى واقع الإنسان في ممارسة إيمانية وعمل تطبيقي، تنقية الولاء مما علق به من اضطراب وعرضه عرضاً قرآنياً صافياً، ليكون ذلك كله أساساً لقيام الأمة الواحدة والدعوة الواحدة، وأساساً لتحديد أهداف لقاء المؤمنين تحديداً واضحاً جلياً، يساعد على صدق المسيرة، وعلى الصدق مع الله. فهي إذن قضايا ثلاث أساسية: رابطة لقاء المؤمنين وسائر الروابط الإيمانية، خَصَائص لقاء المؤمنين جميعها ومحورها كلها العهد والولاء، وأهداف لقاء المؤمنين.

خامساً: أن تضع الطاقة البشرية المدربة المؤمنة النهجَ والخُطة على الأساسين الكبيرين: منهاج الله والواقع الذي نفهمه من خلال منهاج الله، النهج والخُطة لتحقيق المسيرة والبناء والأهداف. فلا تسير الدعوة دون خطة ونهج.

سادساً: الالتزام الصادق الواعي.

إن هذه القواعد كلها، وكل قاعدة منها، لا تمثل نظرية بشرية يضعها رجل من عند نفسه. ولكنها جزء من تصور إيماني وتدبر قرآني. فهي تكاليف نزلت بها آيات كريمة وأحاديث شريفة. ولقد سبق عرض الأدلة في ذلك كله في كتب: دور المنهاج الرباني في

الدعوة الإسلامية، منهج المؤمن بين العلم والتطبيق، لقاء المؤمنين بجزئيه الأول والثاني، الشورى وممارستها الإيمانية، الشورى لا الديمقراطية، وغيرها من كتب الدعوة في ميادينها المختلفة من فكر وأدب وواقع.

إن التزام هذه القواعد لا يمثل رغبة أو مجرد هوى. إنه دين الله قرآناً وسنة. وليس لنا من دور ولا لغيرنا إلا التذكير والنصيحة والتعاون، والنهوض إلى واجب أمر به الله.

ومن أجل ذلك ننصح على أساس من منهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ أن يخضع الالتزام للقواعد العامة التالية:

أولاً: أن يعمل كلٌّ على قدر وسعه وطاقته التي سيحاسبه الله عليها، وعلى قدر أمانته ومسئوليته:

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (المؤمنون: ٦٢)

ثانياً: أن يكون الالتزام مهمة عمر وصحبة حياة.

ثالثاً: أن يمثل الالتزام صورة البذل والجهد، ليظل عملاً مستمراً نامياً في إيمانه وعلمه، وزاده وتجاربه، ونهجه ووسائله، وأساليبه الطيبة النظيفة الطاهرة، الواعية الذكية، القوية الجليّة، لتمثل في هذا كله امتداد مدرسة النبُوّة.

رابعاً: أن تجعل المراقبة والمتابعة من الخطأ مدرسة تبني وتقوم على أساس من منهاج الله، في تناسقه وتكامله، وعلى أساس من موازنة أمينة عادلة.

٨ - أهمية العهود في واقع الأمة :

وكما ذكرنا قبل قليل فإن المؤمنين يلتقون على أسس من التذكرة والنصيحة والتعاون. فمن أجل ذلك تقوم الدعوة وتمتد في الأرض، ويقوم العهد ويمتد في حياة الناس، إذا صدقت النيّة لله رب العالمين، وصحت العزيمة في جهاد ماضٍ إلى يوم الدين. وبهذا يقوم الأساس المتين لبناء الأمة المسلمة الواحدة، وللقاء الدعوات كلها، على كلمة سواء، كما أمر الله سبحانه وتعالى. ويصبح الأمر هذا عهدَ حياة لا يتوقف، يتناقله جيل عن جيل، حتى تتحقق الأهداف، أو تقوم الساعة. يمضي على بيعة صادقة مع الله، ممتدة في حياة الإنسان، عاملة في واقعه، تحملها العصبة الظاهرة للحق، ماضية في درب عظيم إلى الجنة.

وكان المسلمون في مختلف عصورهم، يفزعون إلى البيعة أو إلى تجديد البيعة كلما اشتدَّ الأمر. ففي الحديبية أخذ رسول الله ﷺ البيعة من أصحابه، مع أنهم كانوا على بيعة ماضية مع رسول الله ﷺ، وبيعة صادقة مع الله رب العالمين، قبل ذلك. ونزل بذلك قرآن وجاءت أحاديث.

وفي موقعة اليرموك، لما اشتدَّ البلاء على المسلمين، هبّت عظمة الإيمان لتدفع الخطر عن المسلمين وتستنزل النصر من عند الله، هبّت عظمة الإيمان لتدعو الناس إلى عهد وميثاق وبيعة. فقام عكرمة بن أبي جهل يوم اليرموك فقال: «قاتلت رسول الله ﷺ وأفرُّ منكم اليوم؟ ثم نادى: من يبايعني على الموت؟!» فبايعه عمه

الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتل منهم خلق كثير[1]. لقد كان هؤلاء جميعهم على بيعة لخليفة رسول الله، وكانوا جميعهم على بيعة لله ورسوله. وكل بيعة كانت توثيقاً للأخرى لا نقضاً لها، وقوة لا توهيناً لها. ونادَى عكرمة رضي الله عنه: من يبايعني؟!، في موقف خطر حازب. فلم يتحول الموقف إلى جدل ومراء، وفلسفة أهواء، وإنما انطلقوا جميعهم إلى البذل والجهاد في بيعة توثق بيعة، وفقه رائع عظيم، حمل معه النصر من ميدان إلى ميدان.

وتوالت العهود في التاريخ الإسلامي من رجال نهضوا للجهاد في سبيل الله، يحاربون أعداء الله، أو يبلغون دعوة الله، أو يبنون في أمة الإسلام جمعاً وقوة، ويوفون بذلك كله بعهدهم الثابت مع الله، فيرتبط عهد بعهد، ويمتد ولاء إلى ولاء، حتى تلتقي الجهود في درب واحد فلا تتبدّد، وتلتقي العزائم في مجرى واحد فتتوحد، حتى تقوم الأمة المسلمة الواحدة، وحتى تتحقق الأهداف الإيمانية الصادقة.

إن الأهداف الربّانيّة تحتاج إلى نهج ربّاني، وإلى أساليب ربّانيّة، لا يدنّسها الباطل والفساد والضلال. وإن النهج الرباني يحتاج إلى رجال ربانيين:

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ (ص: ١١، ١٢).

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾
(آل عمران : ٧٩)

إن الأهداف الربانية تحملها دعوة ربانية، ويمضي بها العهد الربّاني حتى تتحقق الأهداف أو يلقى المؤمن ربّه طاهراً بالوفاء، غنيّاً بالرضاء، سخياً بالعطاء.

وفي واقعنا اليوم ظلمات أشدُّ مما مضى، وابتلاء أشد مما عرف المسلمون في موقعة اليرموك. في واقعنا اليوم غزو جارف، وإعصار مُدمِّر، وطوفان ساحق، يهدِّد المسلمين كلَّهم حيثما كانوا. جيوش تزحف على أفغانستان فمن ينهض لها إلاّ عهد موثق، وبيعة لله طاهرة، وركض إلى الجنّة؟! وسياسة دولية تدفع يهود الأرض إلى فلسطين فيحتلونها، ويقيمون دولتهم، ويتناثر المسلمون منها لاجئين مبدَّدين في أنحاء الأرض، فمن يتصدى لليهود ومن وراءهم إلا عهد أمين، وعصبة تنهض فلا تخون، وأمة يزحف منها الرجال والنساء والبنون؟! وفي كل بقعة من العالم الإسلامي، أو في معظمه، خطر قائم أو خطر يهدّد، فمن لأعراض المسلمين وثرواتهم ودمائهم؟! وأفغانستان التي عاث فيها الشيوعيون السوفيات سنوات عديدة ولا زالت السياسة الدولية تحيك المؤامرات لهذا البلد المسلم، فمن لأفغانستان بعد الله إلا الشعب المؤمن بأفغانستان وإلا أمة الإسلام؟! ويذبح المسلمون في البوسنة والهرسك وفي زنجبار وفي الصومال وفي الفلبين وفي الهند، من لهؤلاء جميعهم وكثير غيرهم من ديار الإسلام إلا العهد الواعي الأمين، والأمة المسلمة المجاهدة، والعصبة الظاهرة على الحق؟!

ولابـدّ من تدبّر وتثبّت. إن العهد يحمل أمانة ومسئولية. إنه يحمل أمانة نهج ومسئولية أهداف. إنه عهد يجمع ولا يفرّق. إنه عهد جليّ واضح بالقرآن والسنّة والتكاليف الربانيّة. إنه عبادة لله، وأمانة وطاعة، لتنهض دعوة الله في الأرض، ولتنهض أمّة الإسلام في الأرض. إنه نية وعزيمة ودرب طويل إلى الجنة!

إن هذا العهد بصورته الإيمانية أمانة في عنق المؤمن، فأنى له أن يتفلّت منه إن أراد أن يصدق الله ورسوله؟! أني له أن يتفلت إن كان يريد حقاً أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين. إنه عهد الله.

إن التولي عن هذه القضايا التي سبق عرضها هو تثبيت لحالة المسلمين، وتوسيع لثغرات ينسل منها الأعداء، وانقطاع عن العهد الممتد مع الله. إن التولّي عن وعي المنهاج الرباني والواقع كل قدر وسعه ومسئوليته صحبة عمر وحياة، وبناء الأمة على هذين الأساسين، وإحياء رابطة المؤمنين وسائر الروابط الإيمانية، وترسيخ خصائص لقاء المؤمنين التي سبق عرضها، وتحديد الأهداف الربانيّة التي تجمع المؤمنين وجهودهم، وبناء النهج المؤمن المفصّل على أساس ذلك كله لبلوغ الأهداف الربانيّة، إن التولي عن ذلك كله توهين وتخذيل.

كيف لا؟! ونحن نرى أعداء الله يزحفون علينا صفّاً واحداً. ومهما بلغ بينهم التناحر والتنافس والصراع، فإنه يتوقف حيناً ليجتمعوا على ضرب العالم الإسلامي، على محاربة الله ورسوله،

محاربة الخير الذي هم أكثر الناس حاجة إليه. كيف لا؟ ونحن نرى ثبات الكافرين على عهدهم مع الشيطان، وعلى ولائهم له. فلابد إذن من ثبات المؤمنين على عهدهم مع الله، ولابد من قيام صف الإيمان مقابل صف المشركين وصفّ الشيطان، ولابد من أجل ذلك أن يقوم جهد المؤمنين المترابط المتناسق.

٩ - نماذج العهد مع الله في حياة المؤمنين :

إنه العهد مع الله، العهد الممتد في واقع الإنسان، لحماية صف الإيمان، وجند الله، وعصبة الحق، وديار المسلمين وأعراضهم وأموالهم، ولصد الفتنة والفساد عن الأرض.

من هذا العرض الموجز لواقعنا المعاصر، ولأسس العهد مع الله، ولامتداد العهد في حياة الإنسان وواقعه، نستطيع أن نوجز العهد في حياة الإنسان بنماذج أربعة:

أولاً: العهد مع الله والبيعة لله. عهد في عنق بني آدم كلهم، عهد في عنق كل إنسان، عهد موثق بالشهادة والبيعة، وبالشروط والجلاء، كما فصلنا ذلك سابقاً.

ثانياً: العهد والبيعة مع رسول الله ﷺ. عهد النبُوة وبيعة النبُوة، النبُوة الخاتمة. عهد وبيعة يرتبطان بالعهد مع الله حتى كأنهما عهد واحد وبيعة واحدة.

ثالثاً: العهد والبيعة لخلفاء النبُوّة الخاتمة، خلفاء محمد ﷺ. عهد وبيعة يرتبطان بالعهدين السابقين ويمتدان بهما في واقع الإنسان. ويقوم هذا العهد وتقوم البيعة في أمة الإسلام، الأمة

الواحدة المتراصّة في الأَرض، الأُمة التي لها إمام واحد، تبايعه الأُمة كلها، فلا يحل لمسلم بعد ذلك أن يموت وليس في عنقه بيعة لإمامه، ولا يحل لمسلم أَن يشقَّ الأُمة ولا خلافتها ولا عهدها.

رابعاً: العهد والبيعة اللذان يكونا استجابة لواجب شرعيّ في واقع جديد، واقع تعرَّضت الأُمة فيه للخطر، فهبَّ من استطاع، أو واقع تمزَّقت فيه الأُمة وأَحاطت بها الأَخطار، حتى لم يعد لها خليفة واحد ولا إمام واحد في الأَرض كلها. وهذا العهد يجب أَن يستوفي خصائصه الإِيمانية: أَن يكون نابعاً من العهد مع الله، مرتبطاً به موثقاً به. أَن يكون قائماً على أَساس منهاج الله قرآناً وسنة: إيماناً وعلماً وعملاً. أَن يحفظ رابطة الإِيمان التي أَمر الله بها، ويَصُون سائر الروابط الإِيمانية في صورتها الإِيمانية دون أَن تتحوَّل إلى عصبيَّات جاهليَّة، وأَن يُرسّخ خصَائص لقاء المؤمنين، وأَهداف لقاء المؤمنين، وأَن يقوم على ذلك نهج مفصَّل يجمع المسلمين، أَو يدعو لجمعهم في أُمة واحدة تعبد ربّاً واحداً، في صفٍّ كالبنيان المرصوص، يحمل دعوة الله في الأَرض، حتى يرى الناس أَن كلمة الله هي العليا في واقع الإِنسان. وبصورة موجزة: أَن يقوم على الأُسس التي سبق عرضها.

هذا العهد الأَخير قد يتعدد في واقع المسلمين لتعدد أَفكارهم، وتنوع قضاياهم، واختلاف ظروفهم، وتعدد الوسع والطاقة. وقد يكون هذا التعدد باب خير في الواقع المظلم الذي يعيشه المسلمون، إذا التزم كل عهد بارتباطه بالعهد مع الله، وبالسعي

الأمين لقيام الأمة المسلمة الواحدة في الأرض، وإذا التزم بالخصائص السابق ذكرها.

وسيظل المؤمن يحمل في حياته عهوداً ومواثيق يبتليه الله بها، ليمحص إيمانه وصدقه، وجهاده وسعيه. فلا يكون الوفاء في عهد سبباً لنقض عهد آخر. فلا يكون برّ الوالدين سبباً للنكوص عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فالمؤمن يوازن بين مختلف الواجبات الشرعية فيقدم ويؤخر، ولكن لا يبطل ويعطل، على أبر ما يستطيع وأتقى. والممارسة مدرسة غنيّة تمدّ المؤمن بالزاد والتجربة ما التزم عهده مع الله وعهده مع خلق الله، ومادام منهاج الله معه صحبة عمر وحياة إيماناً ويقيناً، وعلماً وتدبُّراً، وممارسةً وعملاً، ومادامت النّصيحة دائرة بين المؤمنين، أمينة، صادقة، ومادامت الشورى عاملة في حياة المسلمين تبحث دائماً عن الحق لتتبعه، فلا تتبع الهوى.

إن أساس قيام هذا العهد، هو عدم وجود الأمة المسلمة الواحدة، والخليفة الإمام الواحد. وفي نفس الوقت قيام واجبات شرعية وتكاليف ربانيّة لا تسقط عن المؤمن ولا عن جماعة المسلمين، مهما تفرّق شملهم، وتمزّقت ديارهم، واضطربت أحوالهم.

فلو غزا عدو كافر أرضاً للإسلام، أرضاً تمثل جزءاً من عالم إسلامي ممزّق، أنطلب من أهلها أن يستسلموا؟! إن مجاهدة الكافرين عندئذ فرض يتعاهد عليه المؤمنون، وينهض كل مؤمن في

الأرض، قادر على المدد فيمد إخوانه بجهده وماله وسعيه قدر ما يستطيع، وبجهاده وبلائه في الميدان، على أن يتحدَّد دور كل واحد وفق خطة مدروسة، ونهج محدد، يستوعب الطاقات والإمكانات. ولكنّ الواجب الشرعيّ الإيماني لا يسقط أبداً. وفي أضعف الأحوال ينهض المؤمنون ليُعدوا للجولة إذا غلبهم العدو، فلا يستكينوا أبداً أبداً.

وإذا قامت صفوف المشركين تنظم قواها على عهود موثقة بينها لتحارب الإسلام والمسلمين، أنتركهم يعبثون في الأرض فساداً وإفساداً وينشرون الفسق والفجور والانحلال والمخدرات، وينشرون الكفر والإلحاد؟! أنترك الماسونية والبهائية والروتاري والصهيونية والشيوعية، وغير ذلك من حركات، تمتد في حياة المسلمين صفوفاً مرصوصة، لها مناهجها وقواها وإمكاناتها، أنتركها تفسد في حياة المسلمين وتحارب الله ورسوله، فنعطل نحن قوانا وإمكاناتنا وجهودنا؟!

أنترك كذلك الفرقة بين المسلمين تمتد في الأرض ليزيد التمزّق والوهن والضياع؟! أنترك الفرقة تمتد ولا ينهض صفّ المؤمنين ليعالج فتنة وفساداً ومرضاً وداءً؟!

هذه نماذج عامة سريعة مما يفرضه الإسلام على جنوده في كل موقف يستدعى الجهد منهم. ولكن التكاليف كثيرة جداً، وميادين الإسلام مفتحة، تستوعب كلّ طاقات المؤمنين مهما زادت، وهي في الحقيقة مازالت حتى اليوم أقل مما يحتاج إليه الواقع المظلم،

وكذلك فإن هذا الواقع لا يسقط هذه الواجبات، ولا يلغي هذه التكاليف.

إن الاستجابة لهذه الواجبات أمر يفرضه الدين، ويرسم دربه ونهجه، ويبيّن حدوده ومداه. وإذا عدنا إلى نماذج الاستجابات المتعددة في واقعنا المعاصر. نجد فيها كلها، أو في معظمها، نواحي إيجابية، ونجد إسرافاً وتقصيراً، فنرفع الدعاء الصادق إلى الله سبحانه وتعالى أن يجزي العاملين الصادقين بصدقهم، وأن يجزي المحسنين بإحسانهم، وأن يغفر للجميع التقصير والإسراف والضعف، وأن يهب العزائم قوة الثبات والمضي، وأن يجمع المؤمنين في الأرض أمّة واحدة.

١٠ ـ أهمية النهج والتخطيط في سلامة السعي ونجاحه :

وفي الوقت نفسه، نجد عند دراسة هذه الاستجابات، في واقعنا الإسلامي المعاصر اضطراباً تعرّضت له، وبلاء مرت فيه، وتمحيصاً خضعت له. ونجد كذلك فتنة هنا وفتنة هناك. وربما لم تستقم بعض النفوس على عهد، ولم تنهض لسلامة وفاء. فلابد من دراسة هذه الظواهر، ولابد من وقفة تأمل وتدبّر.

وإن كان لنا كلمة في هذه العجالة نسُوقها هنا، فإنما نقول إن من أكبر مظاهر النقص والضعف والخطأ، هو كثرة الشعارات والرايات والجمل العامة والتعبيرات الحماسية العاطفية الحلوة المحببة إلى النفوس، ثم جمود التخطيط والنهج على مرحلة مبدئية، فتمضي الدعوة في دروب متشابكة كثيرة، يزيدها غياب النهج

اضـطراباً، ولا يفتح لها درباً واحداً، ولا موقفاً جلياً. إن غياب النهج والتخطيط بمعناه الإيماني الدقيق كان من أهم الأسباب التي أضرت بالحـركات الإسلامية حتى تحول بعضها إلى تجمعات لا ينهض بها بنـاء مرصوص، ودرب ممدود لأهداف واضحة جلية، أهداف ثابتة وأهداف مرحلية.

عندما نتحدث عن النهج والتخطيط، فإننا نعني بذلك ضرورة توافر تفاصيل لعناصر ثلاثة رئيسة:

أولاً: النية الواعية، النية الممتدة في كل عمل وكل خطوة، النيّة المتجهة بهذا كله إلى الله رب العالمين، إلى الدار الآخرة، إلى الهدف الأكبر، إلى الجنة. النيّة التي تمتد وتصاحب العمل في كل خطوة. النيّة الصـادقـة التي تروي العمـل، تغـذيه، تهبـه القوة والجمال والحياة. النية التي لا تقف عند الشعائر فحسب، ولكنها تمتد إلى السياسـة والاقتصـاد والسلم والحـرب، والاجتماع والتربية وسائر الميادين والأعمال، وبغير النيّة تفقد الأعمال ريَّها وغذاءها وحياتها. النيّة الصادقة الواعية التي تقوم على علم بمنهاج الله، وعلم بالواقع.

ثانياً: الدرب، الصراط المستقيم، الطريق المرسوم الذي تسير عليه دعـوة الله. الدرب بجلائه ووضوحه، حتى لا تكون حيرة واضطراب هنا، وتفرّق وانشقاق هناك، الدرب الذي تركَنا عليه رسـول الله ﷺ، بامتـداده وقـواعـده الأساسية ومعالمه الربانية، بالمحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ثالثاً: الأَهداف المشرقة الجلية المحددة، الأَهداف التي ترتبط كلها بالهدف الأول، بالهدف الأكبر، بالجنة، ارتباط إيمان وعلم، ارتباط جهاد وعطاء. الأهداف الثابتة والمعالم الراسخة التي حدَّدها منهاج الله على درب طويل إلى الجنة. ثم الأهداف المرحلية التي يضعهـا الإنسـان على ضوء واقعـه وعلى أساس من إيمانه وعلمه بمنهاج الله لتنقله من هدف ثابت إلى هدف ثابت، في درب ماضٍ إلى الجنة.

والنهـج والتخـطيط يحتـاج إلى رجـالـه وطاقاته، وإلى قدراته وكفـاءاتـه، وإلى مواهبـه، يصـوغها منهاج الله ويغذيها ويصونها ويتعهدها. فتعمل وتجاهد على نهج جلّي واضح عرفت خطواته، ثم تنقل ذلك إلى جيل جديد يتابع المسيرة في درب طويل إلى الجنة. ويتنزّل النصر من عند الله، وينجز الله وعده لعباده المؤمنين، حين يشاء هو، وهو العليم الحكيم.

والنهج يدعو إلى أن تساند ميادين الأمة بعضها بعضاً.

١١ - موجز أسس العهود في حياة المؤمنين :

إن توافـر هذه التفـاصيل ضرورية للعهـد على ضوء الـواقـع البشريّ الذي يمضـي فيه العهد. ضرورية حتى يكون هناك تبينّ وتـدبّر، وجلاء ووضوح، فتصدق النية والعزيمة ويصدق العهد عندئذ. ويمكن أن نعيد إيجاز الأسس التي يقوم عليها العهد في حياة ابن آدم في الـدنيا، الأسس التي تربط العهد وتوثقه، على النحو التالي:

أولاً: أن يكون العهد نابعاً من الإيمان والتوحيد، مرتبطاً به، وبذلك يكون نابعاً من العهد مع الله، ذلك من خلال بنود مفصلة ترسم النهج العام.

ثانياً: أن ينهض العهد على أساس منهاج الله، لا شعاراً فحسب، ولكن إيماناً وعلمًا وممارسة، تعين على سلامة الوفاء وصدق الأمانة.

ثالثاً: أن ينهض العهد على أساس من فهم الواقع من خلال منهاج الله، فهمًا إيمانياً، يعين على صدق الممارسة وأمانة العهد.

رابعاً: توافر النهج والخطة على صورة تنطلق بالعناصر الرئيسة الثلاثة: النيّة والدرب، والأهداف، ليؤمّن النهج الخطة اللازمة لتغذية الإيمان وتنميته وحمايته، ولمصاحبة منهاج الله صحبة عمر وحياة، ولدراسة الواقع من خلاله، ولتوفير التدريب على ذلك كله، والتدريب على ممارسة منهاج الله في الواقع البشري، ولتوفير رابطة المؤمنين وحماية سائر الروابط الإيمانية ورعايتها حتى لا تتحول أي رابطة إلى عصبية جاهلية، ولإحياء العهد مع الله والتذكير به ليكون أساس كل عهد، والولاء الصادق لله ليكون أساس كل ولاء، ولتحقيق بنود العهد المفصّلة والأهداف المبينة.

خامساً: أن تكون جميع الشروط السابقة أساساً متيناً للقاء المؤمنين بخصائصه الربّانية، وقواعده الإيمانية، لقاءً يجمع القلوب والسواعد، والجهود والجهاد.

سادساً: أن يهدف هذا كله إلى قيام الأمة المسلمة الواحدة التي تعبد رباً واحداً، تحمل رسالة الله إلى الناس، إلى عباده وخلقه،

لتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهّار.

فإذا توافرت هذه الشروط في عهد من عهود الإيمان، في أي ميدان من ميادين العمل والدعوة، والبذل والجهاد، والاقتصاد والتجارة، والتربية والتعليم، وغير ذلك من ميادين الحياة، يصبح عندها العهد بهذه الشروط ملزماً لصاحبه إلزام إيمان ووفاء وصدق.

ولابد من أن نؤكد أن نقض العهود في حياة الإنسان تهديم للحياة البشرية، وتخذيل للحق والخير، وقوة للشرّ والباطل. إن الوفاء بالعهود عدل وإحسان، ونقضها هو فحشاء ومنكر وبغي. فلقد ضرب الله مثلاً لنقض العهود في حياة الإنسان بالمرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

ونقض العهود التي أكّدَتها الأيمان يجعل الأيمان والتوكيد غدراً ودخلاً، حتى تكون جماعة أقوى من جماعة. والله سبحانه وتعالى يختبر عباده يبتليهم بهذه العهود، وسيبيّن الله لعباده يوم القيامة ما كانوا فيه يختلفون. ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة، ولكن الله هو أعلم بخلقه وعباده فيهدي برحمته من يستحق الهداية عدلاً منه سبحانه وتعالى على علم وحكمة فهو العليم الحكيم. وهو كذلك يضل من يشاء عدلاً منه سبحانه وتعالى، فينقض الضالّ عهده، ويفي المؤمن بعهده. إن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده أن لا يجعلوا من أيمانهم وعهودهم دَخَلاً، أي أبواب غدر وخيانة بالنقض والإدبار، حتى لا تزلّ قدم بنقضها العهد وقد ثَبَتَتْ بالعهد نفسه. ومن يفعل ذلك فسيذوق السوء عاقبة عمله، فعمله هذا

ونقضه للعهد هو صدّ عن سبيل الله. ونقض العهد مَثَلُه كمن يشتري بعهد الله ثمناً قليلاً، ذلك لأنه لا ثمن أعظم من الوفاء بالعهد، فالعهد ثمنه وقيمته عظيمة في ميزان الإيمان. ولا يجوز نقض العهد حتى لو بدا بالنقض مكسب دنيوي، ذلك لأن ما عند الله هو خير، وما عند الناس مما يطمع به الناس ينفد ويذهب ويتلاشى، وأما ما عند الله فهو باق. والذين يصبرون على وفاء العهد أجرهم عند الله عظيم، يجزيهم الله بإحسن ما كانوا يعملون ويغفر لهم من سيئاتهم وذنوبهم. إن الربح الحقيقي في الدنيا هو العمل الصالح، والوفاء بالعهد عمل صالح إذا كان العهد باسم الله وكان الله عليه كفيلاً. ومن يف بعهده ويعمل عملاً صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فإن الله سيحييه حياة طيبة وسيجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

هذه هي الصورة التي يعرضها كتاب الله للعهد ولمنزلته، ولمعناه ولشروطه. وقد جاء العرض ميسّراً غنياً جلياً، حتى لا يكون لأحد عذر يوم القيامة. ولنعش مع الآيات الكريمة من سورة النحل، وقد سبق أن ذكرناها، ولكننا نحتاج إلى تلاوتها وتدبرها، ومن أجل ذلك فهي تحتاج إلى إعادة وتكرار، حتى يزيد على المؤمن خيرها وبركتها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا

تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل : ٩٠ ـ ٩٧)

ولابد من أن نؤكد أن هذه العهود بين المؤمنين فيما عرضناه هنا، ومما هو استجابة لواقع يمر به المؤمنون، مهما اتسعت ميادينها، وتعددت أوجه نشاطها، لا تبلغ في محتواها مستوى العهد العام، العهد للولاية العامة، العهد مع خليفة رسول الله، العهد مع أمير المؤمنين.

إن العهود التي عرضناها لا تجعل من أصحابها «جماعة المسلمين» الوحيدة، ولا من عهدها عهد ولاية عامة. ولا يحل أن تكون الجماعات الإسلامية مصدر توهين وتمزيق في حياة المسلمين، ولكن يجب أن تنصّ عهودها وتمضي ممارستها الإيمانية الواعية الصادقة على جمع المؤمنين في دعوة متناسقة، تمضي لبناء أمة واحدة تعبد رباً واحداً، كما أمر الله رب العالمين، وتجمع الجهود والطاقات ولا تقتلها في عصبية جاهلية.

في واقعنا اليوم يخوض المؤمنون معركة حياة أو موت، فرضتها عليهم الغارة الوحشية، والطمع والجشع، والظلم والعدوان.

واستجابة لهذا الواقع ينطلق المؤمنون من مواقف تُقَرِّرُها أُسس منهاج الله وقواعده ونهجه.

وتمضي عهود المؤمنين في حياتهم العامة، وتمضي عقودهم على أُسس منهاج الله، في جميع ميادين حياتهم. ويرتبط كل عهد بميدانه وشروطه وبنوده.

أما عهد الإمامة الكبرى، عهد الخلافة فهو عهد يشمل الميادين كلها والأُمة كلها وديار المسلمين كلها.

ولذلك يحتاج العهد في كل ميدان خاص أَن تكون شروطه واضحة مفصّلة ونهجه جلياً، وخطته معلومة، حتى يكون العهد على أَمر معلوم، والعقد على شيء محدَّد، فلا يكون هنالك إبهام ولا غموض.

أَما الولاية الكبرى فشروطها وبنودها هي الكتاب والسنة، لتغطي الميادين كلها، وشئون المسلمين كلهم. ثم تقوم الأُمة بمختلف طاقاتها ومواهبها لبناء النظام والنهج في كل ميدان من ميادين الحياة، على أَساس من منهاج الله والواقع الذي تعيش فيه.

١٢ - التناسق بين عهود المؤمنين:

إن كلَّ عهود المؤمنين في حياتهم الدنيا يجب أَن تنبع من العهد مع الله، وأَن تخضع لمنهاج الله، وأَن تستوفي الشروط الإيمانيّة اللازمة في هذا الميدان من الحياة أَو ذاك. ولقد عرضنا الأُسس التي يجب أَن تقوم عليها الدعوة الإسلامية حتى تستوفي أَفضل شروط السلامة. ذكرنا ذلك لأَن عهود العمل الإسلامي إذا استوفت

شروطها التي عرضناها، هي من أخطر عهود الإنسان في حياته. ولكن الشروط الإيمانية العامة تمتد إلى سائر ميادين الحياة وعهودها. فإذا توافرت هذه الشروط والأسس فيها، فإن الله سبحانه وتعالى يسميها «**عهد الله**» عندئذ، تكريمًا لها، وحضّاً للمؤمنين على الوفاء بها. وبتوافر هذه الشروط تتناسق عهود المؤمنين في حياتهم ولا تتضارب ولا تتعارض. كيف يجوز أن تتعارض عهود المؤمنين وقد أمر الله بالوفاء بها؟! وكيف تتعارض وكلها مرتبطة مع عهد الله، نابعة منه، قائمة على منهاج الله؟!.

من هذا التصور نرى كيف يرسي الإسلام قواعد لقاء المؤمنين، وكيف يجعل النهج: «**محجّة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»، كما قال رسول الله ﷺ. إننا نرى من هذا التصور كيف يستقيم النهج حتى لا ترى عوجاً فيه. نهج مستقيم ودرب مستقيم:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾. (الأنعام: ١٥٣).

فإن حدث تعارض واضطراب فهو من عمل الإنسان نفسه، وانحرافه واضطرابه، أو من الانفصال عن العهد مع الله، أو عن منهاج الله. هو في كل حالة مسئولية الإنسان، بعد أن بيّن له الله النهج والدرب والأهداف، فاختار بعض الناس نهجاً آخر ودرباً آخر وأهدافاً أخرى، حتى انحرفوا وضلّوا.

لا تفيد الشعارات وحدها في تحقيق التناسق والترابط. ولكن سلامة الممارسة الإيمانية، واستيفاء الأسس والشروط التي عرضناها هي أساس التناسق والترابط.

إن عدد سكان الكرة الأرضية يبلغ خمسة مليارات نسمة. ينتسب إلى الإسلام منهم بحدود مليار. ملايين من المنتسبين إلى الإسلام يحتاجون إلى جهود ضخمة، وإلى توجيه دائم، وإلى رعاية واسعة. وأربعة مليارات من خلق الله تحتاج إلى من يدعوهم إلى الإسلام. فجهود دعاة اليوم كلها، وأضعاف أضعافها لا تكاد تكفي للمهمة. وقضايا المسلمين ممتدة، واسعة، خطيرة، تزيد مع الأيام اتساعاً وخطورة. وأضعاف أضعاف العاملين اليوم لا يكاد يكفي لسلامة معالجة قضايا المسلمين، والوصول بها إلى شاطيء السلامة. وميادين العمل كلها مفتحة لفرسانها، تشكو النقص، نقص العدة والعدد. كل هذا واضح جليٌّ، فلماذا تتصادم عهود المؤمنين، ولماذا تتمزّق القوى، ولماذا تفشل الجهود؟!

كل من أراد أن يعمل فهذي ميادين العمل. وكل من يملك طاقة مؤمنة فهذا مجراها فليصبّ طاقته. ولكنها أمراض النفس، وفورات الهوى، وغمرات الجهل، هي التي تمزق الناس والجهود والعهود. إنها العصبية الجاهلية هي التي تخنق العمل فتجعل هذا وذاك يودُّ أن يحصر العملَ في نفسه وشعاره، وهو أعجز وأضعف من ذلك، فيدور الصراع ويدور تنافس الدنيا. وأعداء الله يغذون هذه العصبية الجاهلية، لتفتح لهم منافذ وأبواباً.

كيف تتناسق جهود مؤمنٍ وجهود منافق أو كافر أو مشرك؟! إنها لا تتناسق! فلابد أن تتوافرً الأسس المشتركة التي عرضناها حتى تلتقي الجهود، ويمضي لقاء المؤمنين في خشية وخشوع، وإنابة ورهبة ورغبة لله رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

ونوجز موضوعات هذا الفصل في ختامه للتذكير والتوضيح:

١ ـ العهود والولاء والوفاء تنبع كلها من العهد مع الله ومن الولاء لله، وذلك في جميع ميادين الحياة الدنيا في حياة المؤمنين. والوفاء بالعهود، منهج الفطرة السليمة أو بقاياها. والهوى والجهل أهم أسباب النقض والاضطراب.

٢ ـ إنَ منهاج الله يعالج واقع الإنسان كله، لا جزءاً منه، على مدى الزمان كله. لا لفترة محدودة منه. وفي ممارسة منهاجِ الله في واقع الإنسان قد يلقى الإنسان أحداثاً يمارس فيها نصوصاً مباشرة، وقد يجد أحداثاً تحتاج منه إلى جهد وجهاد، وإيمان وعلم واجتهاد، ابتلاء منه سبحانه وتعالى، حتى يلتزم المؤمن حدوده ووسعه، ومسئوليته وأمانته. وقد ينشأ عن ذلك اختلاف، حتى يتحقق الابتلاء والتمحيص، فلا يتحول الاختلاف إلى فتنة وشقاق. وقد وضع منهاج الله معالجة ربانية لذلك كله، ورسم النهج والأساليب للمؤمنين.

٣ ـ إن الدعوة الإسلامية ممتدة في الزمن كله لا تتوقف أبداً ولا تتعطل. وهي مسئولية المؤمنين كافة حتى يطمئنوا إلى مضيّ الدعوة الإسلامية في الأرض كلها.

٤ ـ حين بعث الله محمداً ﷺ، ومضت الدعوة الإسلامية، أصبح للمؤمنين في الأرض واقع متميز بنقاط أساسية:

ا ـ انكشاف أعداء الله بصورة جلية: كافرين ومنافقين وأهل كتاب.

ب ـ ظهور الأمة المسلمة الواحدة في الأرض بصورتها الجلية المتماثلة.

جـ ـ انطلاق الدعوة الإسلامية في الأرض.

د ـ التفاف الأمة الواحدة حول قيادة النبوّة أولاً، ثم حول خليفة رسول الله.

٥ ـ الغارة الواسعة على العالم الإسلامي من أعداء الله فسقطت الأندلس، وامتدت الحروب الصليبية، وامتد العدوان. وظهر من خلال ذلك خطران في واقع المسلمين: غياب منهاج الله عن واقع الناس وعن تصوراتهم، وعدم وجود الخطة والنهج لدى المسلمين في صورة تفصيلية، ليقوم النهج على أساس من منهاج الله والواقع، وليجابه الأحداث. وظهر العثمانيون يحملون رسالة الإسلام. وامتدت الخلافة العثمانية تصد الغارة عن العالم الإسلامي، وتصدّ المؤامرات، حتى سقطت الخلافة.

٦ ـ انطلاق الدعوة الإسلامية الحديثة لمجابهة الواقع الجديد الذي ألـمَّ بالمسلمين في مختلف ديارهم.

٧ ـ القواعد الأساسية التي يجب توافرها لسلامة الدعوة:

ا ـ وعي المنهاج الرباني إيماناً وعلماً وممارسة بصورة منهجية.

ب ـ وعي الواقع من خلال منهاج الله بصورة منهجية .
جـ ـ التدريب والإعداد على ممارسة منهاج الله في الواقع البشري .
د ـ بناء روابط المؤمنين ورعايتها .
هـ ـ إقامة الخطة والنهج على أساسين هامين : منهاج الله والواقع وتجديد شروط العهد في بنود مفصلة على النحو الذي عرضناه .

ومن أجل ذلك يلتزم المؤمن بأربع نقاط رئيسة في ممارسته :
ا ـ أن يعمل كلّ قدر وسعه وطاقته .
ب ـ أن يكون الالتزام مهمة عمر وصحبة حياة .
جـ ـ أن يكون الالتزام جاداً يقدم الجهد والبذل والعطاء .
د ـ أن يصاحب العمل : المراقبة والمتابعة والتذكير والتعاون ، حتى يصبح الخطأ مدرسة تقوِّم وتوجِّه، على أساس منهاج الله ، ومن خلال موازنة أمينة .

٨ ـ أهمية العهود في حياة الإنسان وواجب الوفاء بها مادامت العهود تحمل الخصائص التي عرضناها ، هي أهمية بالغة تحفظ للأمة قوتها وأمنها ونموّها وانطلاقة مواهبها .

٩ ـ يمكن حصر العهود بأربعة نماذج من أجل التوضيح :
* العهد مع الله .
* العهد مع رسول الله ﷺ .
* العهد مع خليفة رسول الله ﷺ .
* العهد الذي يكون استجابة لواجب شرعي في واقع الأمة .

١٠ ـ أهمية النهج والتخطيط في سلامة الدعوة الإسلامية، حتى يتيسر الوفاء بالعهود. ويقوم التخطيط على ثلاثة أسس: النيّة الممتدة الواعية الخالصة لرب العالمين، الدرب المستقيم على منهاج الله، الأهداف الجلية المشرقة المحدَّدة.

١١ ـ أسس العهود في حياة المؤمنين يجب أن تهدف إلى جمع المؤمنين لا إلى تمزيقهم. ويتيسَّر الجمع والتوحيد على قدر ما تتوافر الخصائص الربانيَّة التي سبق ذكرها. ويظل السعي للقاء المؤمنين ماضياً ليكون اللقاء أساس قيام الأمة الواحدة.

١٢ ـ التناسق بين عهود المؤمنين يبرز ويتضح بمقدار ما تتوافر الشروط التي سبق عرضها والخصائص التي سبق بيانها. تلك الشروط التي تحفظ للعهود قوتها وسلامتها وامتدادها، وتحمل معها واجب الوفاء بها.

ومن الضروري أن نشير مع ختام هذا الفصل أن الوفاء بالعهود لا يعني الوفاء لعصبيات أو أهواء، ولا لما ينهض عليها من اجتهادات مضطربة خلت من النهج المستقيم، واصطدمت مع النصّ الصريح. ولكنّ أساس الوفاء هو الوفاء لنهج واضح، وقواعد مفصلة، وأهداف محددة، ترتبط كلها بمنهاج الله قرآناً وسنة، يكون الوفاءُ لها وفاءً من الجميع، وفاءً يشمل القائد والجندي، وفاءً ينأى عن المسوِّغات والأعذار والتناقض، وفاءً يعالج الأخطار لتمضي الأمة في مسيرة طويلة بين نصح صادق ووضوح وجلاء.

الفصل الثاني
العهد والولاء

لا نريد أن نتحدث هنا عن العهد والولاء، والسمع والطاعة، إلا بمقدار ما يتعلق ذلك بمبدأ العهد الذي عرضناه، وما ينشأ عنه من بيعة وولاء، وسمع وطاعة.

فكما ذكرنا أن عهود ابن آدم في حياته الدنيا يجب أن ترتبط وتنبع من عهده مع الله، فكذلك كل بيعة وكل ولاء في الحياة الدنيا يجب أن ينبع من البيعة الأولى لله، ومن الولاء الصادق له، ومن السمع والطاعة لرب العالمين.

ولقد شرع الله الوفاء بالعهد في دينه، وهو غنيٌّ عن العالمين، لصلاح حال الناس، ولتستقيم حياة الإنسان على خير، ولدفع الفساد عن البشر، وإقامة المنهج الحق في الحياة الدنيا، ولتسهيل الأداء بالأمانة التي حملها الإنسان، الأمانة الكبيرة في الأرض، في الحياة الدنيا.

لذلك جاء شرع الله، وجاء العهد، وجاء ما يقوم عليه من بيعة وولاء ووفاء، جاء ذلك كله، لا ليعالج واقعاً واحداً في حياة

الإنسان، واقعاً محصوراً في مكان أو مخنوقاً في زمان. إنه شرع الله الـذي جاء للعصـور كلهـا، ولـلأقـوام كلها، وللظروف كلها، وللأماكن كلها. جاء ليعالج واقع الإنسان فيدفع فيه الخير، ويدفع عنه الشر والفساد، والفتنة والظلم.

فالبيعة تأخذ معناها إذن من هذا الامتداد كله والتاريخ كله، تأخذه من آيات وأحاديث، ومن ممارسة نُبوة وحواريين وأصحاب رسول الله محمد ﷺ.

من هذا كله نجـد أن البيعة هي: التَّعَهُّدُ بالتزام العهد، أو تأكيد التعهد بما شرع الله من وسائل التأكيد. وليس للبيعة «**أجواء**» خاصة، ولا أماكن خاصة، ولا أدوات خاصة. إن أساس البيعة نية وعزيمة شهد الله عليها، لأن الله هو الذي يعلم السرائر وما تخفي الصـدور. البيعـة إذن نيّة وعـزيمـة على الـوفـاء والأداء، ويصحب ذلـك كلمات تُعبِّر عن النيّة والعزيمة، ويصحب ذلك أيضاً بسط يدٍ ومصافحة توثق ذلك كلهُ. وإذا كان في العهد بسط يد، فلا يجري ذلك على النساء، فما مست كف رسول الله ﷺ كفّ امـرأة قط، ولكن كان يبـايعهن بالكلام، ثم يقول: اذهبي، أو **انطلقن، فقد بايعتكِ أو فقد بايعتكن.**

«عن عائشة رضـي الله عنها قالت: . . . والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام» (رواه الشيخان)[1]

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإمارة (٣٣) باب (٢١). حديث (١٨٦٦).

فمن البيعة إذن بسط اليد، ليتعاهد قلب بقلب، وساعد بساعد. ومن هنا جاء التعبير: «.... **ولا تنزعوا يداً من طاعة**». وكذلك في بيعة العقبة قال القوم: «**ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه**».

والبيعة ملازمة للعهد ولصاحب العهد. فهي تعهد بالوفاء وتوثيق له. ولقد ذكرنا سابقاً أن العهد يجب أن يرتبط بالعهد الأول عهد التوحيد والإيمان، عهد الشهادتين، وأن يقوم على أساس من منهاج الله. وكذلك البيعة تكون امتداداً للبيعة الأولى، موثقة بها، مرتبطة بها قائمة على الإيمان والتوحيد ومنهاج الله. ولنأخذ نماذج وقبسات تضيء لنا الدرب وترسم لنا النهج، قبسات من كتاب الله أولاً:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾ (التوبة: ١١١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠ ﴾. (الفتح: ١٠)

وقبسات من أحاديث رسول الله ﷺ:

الحديث الأول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: قال الله عزَّ وجل: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي (أي عهداً) ثم غدر،

ورجل باع حرّاً فأكل ثمنه. ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره» (رواه البخاري)(١)

الحديث الثاني :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل كان على فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه رضي وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره، لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدَّقه رجل. ثم قرأ الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا . . .﴾» (رواه البخاري)(٢)

الحديث الثالث :

عن يحيى بن حصين قال سمعت جدّتي تحدّث أنها سمعت النبيّ ﷺ يخطب في حجة الوداع، وهو يقول: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا» وفي رواية: عبداً حبشياً، وفي أخرى عبداً حبشياً مجدَّعاً» (رواه مسلم)(٣)

الحديث الرابع :

عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده: قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا. وعلى أن لا ننازع الأمر أهله. وعلى أن نقول الحق أينما كنا. لا نخاف في الله لومة لائم» (رواه مسلم)(٤)

(١) صحيح البخاري: كتاب البيوع (٣٤). باب (١٠٦).
(٢) صحيح البخاري: كتاب المساقاة (٤١). باب (٥).
(٣، ٤) صحيح مسلم: كتاب الأمراء (٣٣). باب (٨). حديث (٤١/١٧٠٩).

الحديث الخامس :

عن أم سلمة زوج النبيّ ﷺ عن النبيّ ﷺ أنه قال : «إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم . ولكن من رضـي وتابع» قالوا : يارسول الله! ألا نقاتلهم؟ قال : «لا . ما صلّوا» (رواه مسلم)[1]

الحديث السادس :

وعن أبي هريرة رضـي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «من خرج من الطاعة ، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية . ومن قاتل تحت راية عُمِيَّة ، يغضب لِعَصَبة ، أو يدعو إلى عَصَبة ، فقُتل ، فقِتَلةٌ جاهلية . ومن خرج على أمتي يضرب برَّها وفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ، ولا يفي لذي عهد عهده ، فليس مني ولست منه» (رواه مسلم)[2]

الحديث السابع :

وعـن جنـدب بن عبـدالله البجلـيّ قـال : قـال رسـول الله ﷺ : «مـن قُتِـل تحـت رايـة عُمِـيّـة ، يدعـو عصبيّةً أو ينصـر عصبيّـةً ، فقتلـة جاهليـة» (رواه مسلم)[3]

هذه نماذج وقبسـات فحسب . إنها تضـيء الـطريق وتـرسم النهج ، ولكن التفصيل الكامل والصورة الكاملة نأخذها من منهاج

(١) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (١٦) . حديث (١٨٥٤/١٦) .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . باب (١٣) . حديث (١٨٤٨/٥٣) .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الإمارة (٣٣) . بـاب (١٣) . حديث (١٨٥٠/٥٧) .

الله وحده، على تكامله وتناسقه وترابطه. إن هذا التكامل والتناسق هو الذي يعطي الصورة المعجزة في منهاج الله، الصورة التي نستطيع بها أن نجابه واقعنا فنضع له الحلول، وقضايانا فنضع لها الإجابة. أما حديث شريف واحد، أو عدد محدود من الأحاديث، أو آية واحدة، نأخذ هذا وذاك مجزّءاً، معزولاً عن غيره، معزولاً عن إعجاز التناسق في منهاج الله، إن هذه التجزئة لا تقدم الحل الأمثل والإجابة الفضلى. ولكننا نستعين هنا بهذه القبسات لنمضي خطوات في درب طويل[1].

فالبيعة مع الله عقد شراء: نفس ومال يُقدمها الإنسان فينال من ربه الجنة. فتصبح بذلك هي الفوز العظيم. وهي أكيدة الوفاء من الله سبحانه وتعالى: ﴿ومن أوفى بعهده من الله؟﴾.

وبيعة الرسول ﷺ هي بيعة لله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾! ومن نكث فهو الخاسر، ومن أوفى بعهده نال أجراً عظيماً.

ورجل أعطى عهداً باسم الله ورسوله ثم غدر، فلا يكلمه الله يوم القيامة!

ورجل بايع إماماً لدنيا، فلا ينظر الله إليه يوم القيامة!

والسمع والطاعة واجبة حتى: «**ولو استعمل عليكم عبد حبشي يقودكم بكتاب الله!**».

والبيعة على السمع والطاعة في: «**المنشط والمكره، والعسر واليسر،**

(١) يراجع كتاب الشورى وممارستها الإيمانية للمؤلف لمزيد من التفصيلات. فصل البيعة وفصل السمع والطاعة.

وعلى أثرةٍ علينا!».
والبيعة على أن «**لا ننازع الأمر أهله**»!
والبيعة على قول الحق «**لا نخاف في الله لومة لائم**»!

وسيكون أُمراء فتعرفون وتنكرون لا تحلّ متابعتهم فمن كره فقد برىء. . . ! ومن لا يفي لذي عهد عهده فليس من الرسول ﷺ! وكذلك من قُتِل تحت راية عُميَّة، يدعو لعصبية، أو ينصر عصبية، فقتلة جاهلية.

صور تتوالى وكل صورة تزيد غيرها وضوحاً وجلاءً. وما أعظم الصورة حين تجلى كلها في منهاج الله، فعندئذ تكون ممارستها أيسر وأقرب للتقوى. فأمر «**السمع والطاعة**» ليس محصوراً في الولاية الكبرى وفي خليفة رسول الله، ولكنه ممتد إلى الأُمراء، إلى الولاة، إلى كل من تولى أمراً من أُمور المسلمين، على أساس من منهاج الله، في واقع معين، وظروف معينة، ولو استعمل فيها عبد حبشي!

ولا يحل نقض عهدٍ أُعطِيَ باسم الله ورسوله. ونقض العَهْد غدر يتبّرأ الله ورسوله من صاحبه، ولا ينظر الله إليه يوم القيامة.

والبيعة جائزة على أمر جزئي كما هي جائزة في أمر عام. فإذا كانت البيعة لله ولرسوله هي على أمر الدين كله، فإن رسول الله ﷺ أخذ البيعة من بعض أصحابه على أمر محدود:

فعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول

الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم» (أخرجه الشيخان والترمذي وأحمد)[1]

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يبايع؟». فقال ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ: «بايعنا يارسول الله!». قال: «على أن لا تسأل الناس شيئاً». فقال ثوبان: «فما له يارسول الله ﷺ» قال: «الجنة»! فبايعه ثوبان. فقال أبو أمامة: «فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب، فربما وقع على عاتق رجل فيأخذه الرجل فيناوله، فما يأخذه حتى يكون هو ينزل فيأخذه» (رواه أحمد والنّسائي)[2]

ندرك من هذا الحديث عظمة فهم صحابة رسول الله ﷺ للبيعة وخطورتها: فلهذا الأمر البسيط الذي قد يستهين به كثير من الناس ما أحل ثوبان رضي الله عنه لنفسه أن يخالف عهده. ولو كان هذا الأمر في واقعنا اليوم لقامت آراء عدة هنا وهناك. ولكنها البيعة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم هي عهد وأمانة وميثاق!

ومضت البيعة مع رسول الله ﷺ من صحابته على أمور محدودة أخرى: الهجرة، ثم الجهاد، والنصيحة، وغير ذلك. ولكنها كلها

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأحكام (٩٣). باب (٤٣). صحيح مسلم: كتاب الإيمان (١). باب (٢٣) حديث (٩٧/٥٦). الفتح الرباني: كتاب المناقب. باب جرير بن عبدالله. ج ٢٢ (ص: ٢١٢).

(٢) حياة الصحابة للكندهلوي: ج١ (ص: ٣٥٧).

من أُمور هذا الدين العظيم، وكلها مرتبطة بالإيمان والتوحيد، وكلها مرتبطة بالعهد الأول.

وأخذ الرسول ﷺ البيعة من الرجال والنساء والفتيان وأخذ بيعة عامة وبيعة خاصّة. وطلب تجديد البيعة في أكثر من موطن[1].

ومضت البيعة بعد رسول الله ﷺ على هذا النحو، تنطلق من واقع جديد للمسلمين بعد غياب النبوّة الخاتمة، يوجِّهها كتاب الله وسنّة رسوله، لتعالج واقع المؤمنين في ظروفه المتجددة حتى تقوم الساعة.

وسنعرض في فصل مقبل نماذج من تبدّل الواقع، ونماذج من العهد والبيعة التي جابهت ذلك الواقع. نعرض ذلك في خطوطه العامة حتى نستدّل على معالم ونهج.

ويتبع العهد والبيعة ولاء. وكل ولاء في حياة المسلم يجب أن ينبع ويرتبط من ولائه الخالص الصادق الواعي لله سبحانه وتعالى. وبغير هذا الشرط يبطل الولاء ويسقط، ويكون ضلالاً وفتنة وفساداً وعصبية جاهلية.

لابد من تأكيد هذه الحقيقة في تنشئة الجيل المؤمن، حتى تسري في دمه ولحمه وعظامه، وحتى تعود إليه فطرته السوية السليمة، فيجد الولاء فيها نقياً لله، غنيّاً بالإيمان والتوحيد، يمدُّ حياته كلّها بولاء صادق في حياته الدنيا: مع والديه طاعة لله، مع المؤمنين، كما

---

(١) الشورى وممارستها الإيمانية للمؤلف (ص : ١٩٥ - ٢٢٦). الفصل الخامس: البيعة.

أمر الله، أخوة في أمة واحدة، أخوة لها شروطها الربّانيّة وقواعدها الإيمانية، هذا الولاء الخالص الصادق الواعي لله سبحانه وتعالى هو الذي يقيم روابطه الإيمانية في الحياة الدنيا، روابطه الإيمانيّة كلها من قربى ورحم، وجوار وصداقة، وتعاون، وجهاد ماض في سبيل الله. هذا الـولاء الخالص الصادق الواعي لله سبحانه وتعالى هو الـذي يرسم علاقـاته كلها مع أهل الأرض من مؤمنين وكافرين ومنافقين. وبذلك تنتفي من حياته العصبيات الجاهلية كلها: من عصبية الـرحم والقـربى، وعصبية الصـداقـة والجـوار، وعصبية التعـاون على ذلك، حتى ولو طُلِيتْ بصبغة إسلامية، وزخرفتها شعارات إسلامية.

هذا الولاء الخالص الصادق الواعي لله سبحانه وتعالى ينبع من الإيمان واليقين والتوحيد، ويرسمه ويدفعه منهاج الله قرآناً وسنّة، وتغـذيه الآيات الكـريمـة والأحـاديث الشريفـة وترويه، وتُنقِّيه وتصفّيه، حتى ينتفي عنـه التضـارب والتنـاقض، والخـلاف والتصادم، بين راية وراية وسلوك وممارسة، وبين موقف وموقف، وبين كلمة وكلمة، وبين شعار وشعار.

هذا الولاء الصادق الخالص الواعي لله سبحانه وتعالى هو الولاء الـذي يمـدّ الحياة بطهـرها ونقائها وصفائها على درب طويل إلى هنـاك، إلى الجنّـة! على هذا الـدرب تتنـاسق الحياة والجهـود، والكلمات والـرايات، والمـواقف والعـطاء، حتى يعـرف الإنسان السعـادة الحقّـة، والـرضـاء الحق، والإنسـانية النظيفة الكريمة الطاهرة! هنا، يعرف الإنسان نفسه، ويعرف ربّه ويعرف دربه!

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر : ١٨، ١٩)

ولنأخذ الآن قبسات من كتاب الله نرى فيها ملامح الولاء وبعض خصائصه في منهاج الله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾. (الأنعام : ١٤ ـ ١٨)

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (البقرة : ١٠٧)

ويتأكد ويتكرر هذا المعنى : ﴿ .... وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير.. ﴾ في سور عدة وآيات كثيرة، بأساليب متعددة وظلال ممتدة. ويتأكد معاني الولاء في أكثر من ثلاثين سورة من سور القرآن، حتى لا يبقى جانب من جوانب الولاء إلا استعرضه منهاج الله استعراضاً وافياً لا يبقى معه حجة لأحد.

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (البقرة : ٢٥٧)

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ (النساء : ٤٥)

ثم يمتد الولاء في الحياة الدنيا في ممارسة إيمانية وعبادة وطاعة، وانظر إلى هذا العرض الرباني لما يحلّ ولما لا يحلّ من امتداد الولاء في حياة المؤمن:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

(المائدة : ٥١ ـ ٥٧)

تعرض هذه الآيات الكريمة من سورة المائدة قضية هي من أخطر قضايا الإيمان والتوحيد. إنها تعالج قضية الولاء في حياة المؤمنين، الولاء الذي ينبع ويمتدُّ من الولاء الخالص لله سبحانه وتعالى. إن هذه الآيات تحرِّم تحريمًا قاطعاً الولاء لليهود والنصارى، والولاء للذين اتخذوا ديننا هزواً ولعباً من أهل الكتاب، والولاءَ للكافرين. ولقد جمعت هذه الآيات الكريمة اليهود والنصارى والكافرين معاً بالنسبة للولاء وحرمته معهم. وعرضت مع قضية الولاء أهم الميادين التي تكشف حقيقة الولاء

وتمحصه. إنها ميادين القتال حيث يصبح الولاء عاملاً حاسماً في صدق المواقف وجلائها: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة...﴾ هنا في ميادين القتال ينكشف صدق الولاء أو ضعفه واضطرابه، فترى المنافقين يسارعون فيهم، في هلع وفزع، يلهثون وراء الدنيا وزخرفها من متاع زائل، ومنصب مائل.

وتعرض سورة المائدة نفسها آيات كريمة أُخرى قد يحسبها بعضهم على تعارض مع الآيات السابقة، ولكنها لا تتعارض أبداً:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(المائدة: ٨٢، ٨٣)

جمعت هاتان الآيتان اليهود والمشركين وحدهم في صف واحد، وجعلت النصارى في صف آخر أقرب مودة للذين آمنوا، حتى يخيّل أن هنالك تعارضاً مع الآيات السابقة. والحقيقة أنه لا تعارض أبداً. ذلك لأن هاتين الآيتين تعرضان قضية أُخرى، قضية تختلف كل الاختلاف عن القضية السابقة. فالآيات السابقة (٥١ ـ ٥٧) من سورة المائدة تعرض قضية الولاء، وتعرض الميدان الأَصدق الذي يكشفه ويمحصه. أما الآيتان (٨٢، ٨٣) من سورة المائدة فتعرضان قضية العداوة والمودة، وتعرضان الميدان الذي تخدم فيه المودةُ مسيرة الدعوة الإسلامية. وقضية المودة تختلف عن قضية الولاء والموالاة والاتباع.

والآيتان تعرضان المودة من جانب النصارى، والعداوة من جانب اليهود والمشركين، ولا تعرض قضية العداوة والمودة من جانب المؤمنين، فتلك قضية ثالثة تبحثها آيات أُخرى في كتاب الله. فتجد الآيتين هنا تتحدثان عن: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا... ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا...﴾. وتنصّ الآيتان على أن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى! فالمودة التي تتحدث عنها الآية هي مودة الذين قالوا إنا نصارى، قبل أن يؤمنوا. فلو آمنوا لما عادت العلاقة بينهم وبين المؤمنين علاقة عداوة أو مودة، ولكنها علاقة موالاة بين المؤمنين في أُمة واحدة يجمعها الإيمان والتوحيد.

وتبحث الآيتان الميدان الذي يكشف العداوة أو المودة. إنه ميدان الدعوة والبلاغ، ميدان حمل الرسالة إلى الناس. في هذا الميدان لا تقوم العلاقة بين المؤمنين حاملِي الرسالة ومبلغيها وبين الناس علاقة ولاء. ولكنها علاقة مودة تقرِّب الإيمان إلى النفوس، أو عداوة تنفر بالنفوس عن الإيمان. في هذا الميدان تجد النصارى أسرع استجابة إلى الإسلام وإلى كلمة الإيمان، واليهود والمشركون أشد بعداً وعداوة. وسبب ذلك أن بين النصارى: ﴿...قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾. ولذلك يستمعون بالرغم من نصرانيتهم إلى دعوة الله، وقد تنشأ في قلوب بعضهم مودة للذين آمنوا. فتعمل هذه المودة عملها في القلوب، حتى إذا بلغتها الدعوة رأيت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق...﴾. فيشرح الله

صدورهم إلى الإيمان فيؤمنوا: ﴿... يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾. إنه الإيمان الآن. الإيمان الذي تنمو معه المودة حتى تصبح موالاة بين المؤمنين، موالاة صادقة تدفعهم إلى أن يدعو الله أن يكتبهم مع الشاهدين على الحق وعلى صدق الرسالة والتوحيد: ﴿... يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ لقد انبلج الحق وانشرحت الصدور، واطمأنت النفوس، حتى ثارت الدهشة والعجب كيف لا يؤمنون: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤﴾ (المائدة: ٨٤)

لقد دخلوا ميدان الإيمان وارتبطوا الآن بعهد وولاء، حتى إذا علم الله منهم الصدق جزاهم على صدقهم الجزاء الأوفى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٥﴾ (المائدة: ٨٥)

وتمضي هذه الآيات الكريمة من سورة المائدة تعرض جوانب متعددة من الولاء في حياة الإنسان، تعرضه من خلال الإيمان والتوحيد، ومن خلال الممارسة والواقع. ونكاد نجد ظلال الولاء في جميع سورة المائدة، وفي جميع سور القرآن الكريم. كيف لا؟! والولاء نابع من التوحيد، ماضٍ معه.

ونأخذ قبسات أُخرى من كتاب الله لتشير إلى هذا الامتداد ولتضيء لنا جوانب جديدة من الولاء في واقع حياة المؤمنين وممارستهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ

يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾. (الأنفال : ٧٢ ـ ٧٥)

إن الإيمان والتوحيد، والهجرة والجهاد، وإنفاق المال في سبيل الله، والجهاد بالنفس في سبيل الله، والإيواء والنصرة، هذا كله يبني الولاء في واقع حياة المؤمنين، فيصبح المؤمنون بعضهم أولياء بعض. وفي تلك المرحلة كانت الهجرة شرطاً أساسياً، ثم مضت الهجرة لأهلها كما جاء في حديث رسول الله ﷺ:

عن مجاشع بن مسعود السُّلَميِّ قال: «أتيت النبيّ ﷺ أبايعه على الهجرة. فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها. ولكن على الإسلام والجهاد والخير». (رواه مسلم)[1]

ولا ولاء مع الكافرين أبداً: . . ! ﴿**إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**﴾.

ولا تتعارض الروابط الإيمانية، فلا يتعارض الولاء بين المؤمنين مع الرحم والقربى. ولكن تمضي الروابط كلها يزيدها ولاء المؤمنين قوة وتناسقاً وترابطاً. ذلك لأن هذه الروابط لا تتحول إلى

(١) صحيح مسلم. كتاب الإمارة (٣٣). باب (١٩). حديث (١٨٦٣/٨٣).

عصبيات جاهلية، ولا إلى تجمعات تتناحر وتتفاخر وتتمزّق: رحم وقربى، وجوار وصحبة، وبلدة وقطر. إن جميع هذه الروابط لابد من أن ترتبط أولاً بالإيمان والتوحيد، بالعهد الأول والولاء الأول، حتى تتطهر وتذوب منها الجاهلية والعصبية والأوثان! ثم تعود نقية نظيفة طاهرة، لتتناسق في روابط إيمانيّة، لا في روابط جاهلية! لتبني حياة الإيمان.

وقبسات أخرى:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (التوبة: ٦٧، ٦٨)

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ (التوبة: ٧١، ٧٢)

هذا هو الولاء الحق الذي يرسمه منهاج الله. ولاء صادق خالص واعٍ لله ولرسوله، ولاء يقوم على إيمان ويقين، وعلم بمنهاج الله، ثم هو ولاء يمتد في حياة الإنسان ليقيم روابط المؤمنين نقيّة طاهرة، غنيّة قوية.

إنه إذن عهد مع الله يمتد إلى عهود في حياة المؤمنين، وبيعة لله ولرسوله تمتد في حياة المؤمنين، وولاء لله ولرسوله يمتد في حياة المؤمنين.

ففي الحديث الأول الذي عرضناه في هذا الفصل عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**ثلاثة أنا خصمهم . . .**» هو حديث شريف ماض إلى يوم القيامة، يتناول الحديث كل عهد أنشأه الإنسان وأعطاه باسم الله ورسوله، ويوجب الوفاء به. ونقض مثل هذا العهد غدر. وقد تحدثنا عن الغدر وكيف ينظر الإسلام له. ذلك لأن العهد الذي يُعطى باسم الله وباسم رسوله عهد استوفى شروطه الإيمانية، وقام على أمر جائز في دين الله، أو واجب. فإذا كان العهد على أمر باطل قام العقد عليه، وأسّس العهد عليه، فهو عقد باطل وعهد لاغ.

وأساس الوفاء هو الولاء لله سبحانه وتعالى الذي ينبع منه ولاء للحق، وولاء للعهد القائم على الحق، وولاء بين المؤمنين.

وكذلك يصور لنا الحديث الشريف الثاني حالة الرجل حين تصاحب الدنيا ومصالحها عهده ونيته، وهو يكتم ذلك في نفسه. فلا ينظر الله إليه يوم القيامة.

والحديث الثالث يجعل أساس السمع والطاعة منهاج الله قرآناً وسنة. والحديث الرابع يجعل السمع والطاعة لا يخضعان لهوى ورغبات، وإنما هي بالمعروف في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، وعلى أثرة عليك.

والحديث الخامس عن الأمراء. فإنه لا يدعو إلى ترك الفساد لينتشر وكلّ ما نهى الحديث الشريف عنه هو قتال المسلمين. ولكن قبل القتال هنالك واجبات عديدة على المسلمين أن يقوموا فيها: من إنكار بالقلب، ونصيحة بالرأي والجهد والبذل، وتعاون لدرء الفساد، وحماية للحق وأهله.

وربما يحسب بعض الناس أن النصيحة تنحصر في رأي يدليه، أو كلمة يقولها: إن النصح أكبر من ذلك. فهو يمتدّ من الرأي الصادق والكلمة الأمينة، إلى السعي والبذل والجهد، وإبراز الحق، ودرء الفساد، بالوسائل المشروعة كلها. ولو جعلنا النصيحة رأياً فقط لضاقت النصيحة عن أن تكون كما وصفها رسول الله ﷺ بقوله: «**الدين النصيحة**».

وأما الحديث السادس عن مفارقة الجامعة، فلا يتعلق من حيث الأساس بحركة إسلامية محددة أو جماعة معينة. وإن المفارقة التي لو مات صاحبها عليها لمات ميتة جاهلية، هي مفارقة الجماعة الواحدة والأمة الواحدة التي لها إمام واحد. ولا يعني هذا أن مفارقة أي جماعة من المؤمنين على عداء وخصُومة دون وجه حق أمر يرضى به الإسلام. فالمؤمنون دائمًا حيثما يلتقون، هم جسد واحد، وتظل مسئولية كل مسلم أن يعين على جمع المؤمنين في أمة واحدة، على صدق وولاء لله كما عرضنا. ومن أجل ذلك ينهى الإسلام عن أي عصبية جاهلية ولو حملت زخرفاً إسلامياً، أو شعاراً إسلامياً.

فقد تتحول بعض الروابط في حياة الناس إلى صورة غير إيمانية. فقد تتحول صلة الرحم والقربى إلى عصبية ظالمة معتدية، فهذه هي العصبية التي يأباها الإسلام، وقس على ذلك سائر الروابط. لذلك يحرص الإسلام على أن يصوغ الروابط التي خلق الله الناس عليها من رحم وقربى وجوار وصحبة، أن يصوغها صياغة إيمانية ربانيّة، لتظلَّ روابط إيمانية، يجمعها الولاء بين المؤمنين. فلا يتمزّق هذا الولاء بسبب عصبيات جاهلية.

من هذا العرض السريع تبرز لنا أهمية دراسة الواقع وفهمه من خلال منهاج الله في صياغة النظرية الفقهية، والقاعدة الفقهية، ورسم النهج للممارسة الإيمانيّة.

وانظر إلى نصّ الحديث السادس: « . . . **ومن خرج على أمّتي . . .** » فالحديث الشريف ينظر إلى الأمة المسلمة الواحدة، الأمة المتراصّة البنيان، حتى إذا لم يكن المسلمون أمة واحدة، فكأن الحديث الشريف يدعوهم للنهوض لهذا الأمر، لأنه أساس هام في التصور الإيماني.

وانظر إلى ذلك التعبير النبوي الذي يرسي القاعدة العامة للعهود والعقود في كل ظرف وكل واقع: « . . . **ولا يفي لذي عهد عهده . . .** » فالإشارة هنا عامة ليست لنوع خاص من العهود والعقود. وإنما هي أساس نظرية العهود في الإسلام: تبين وإيمانٌ وعلمٌ ووفاء.

والعهد والولاء والسمع والطاعة، كلُّ هذا لا يمنع من قول كلمة الحقِّ. وقد تقوم أهوال تهدِّد من يقول الحقِّ، وبطشٌ وإرهاب. فمن استطاع أن ينهض إلى ذلك، وهو موقن أنه يقول الحقَّ الذي يجب أن يقال، فقد يبلغ أعلى درجات الشهادة عند الله إذا بطش به ظالم. فالحقُّ، وقول الحق، واتباع الحقِّ، هو أمر الله سبحانه وتعالى، وهو موقف نابع من الولاء الصادق لله سبحانه وتعالى، حين يعرف المؤمن الحقَّ بميزان الإيمان والتوحيد، بميزان منهاج الله، قرآناً وسنّة، على صورة جليّة حاسمة.

ويأتي حديث رسول الله ﷺ يوضح هذه القاعدة العظيمة في حياة الإنسان، في ميدان الجهاد:

عن أبي سعيد الُخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائرٍ»، أو «أمير جائر». (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة)[1]

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الملاحم (٣١). باب الأمر والنهي (١٧). حديث (٤٣٤٤). سنن الترمذي: كتاب الفتن حديث (٢١٧٥). وسنن ابن ماجة في الفتن: باب الأمر والنهي حديث (٤٠١١).

الفصل الثالث

بين العهد واليمين

١ ـ الاسس التي تقوم عليها قضية اليمين :

لقد سبق معنا قبسات من كتاب الله تُرسي قواعد العهد في دين الله، وقبسات من أحاديث رسول الله ﷺ في ذلك أيضاً. ويحسن بهذه المناسبة أن ندرس قواعد فقه اليمين بإيجاز لتساعدنا في فهم فقه العهد، ولنزيل اللبس بينهما.

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ . (المائدة : ٨٩)

فهنالك إذن يمين اللغو.

فعن سفيان بن عيينة عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده : أن النبيّ ﷺ مر بقوم يرمون وهم يحلفون : أخطأت والله، أصبت والله. فلما رأوا الرسول ﷺ أمسكوا. فقال النبيّ ﷺ «أيمان الرماة لغو لا إثم فيها ولا كفارة» (رواه الطبراني في المعجم الصغير)(١)

---

(١) تفسير ابن عطية : ج ٢ (ص : ٢٦١).

وفي تفسير الطبري، عن أبي مالك قال: الأيمان ثلاث: يمين تكفَّر، ويمين لا تكفَّر، ويمين لا يؤاخذ صاحبها. فأما اليمين التي تكفَّر: فالرجل يحلف على الأمر لا يفعله ثم يفعله، فعليه الكفَّارة. وأما اليمين التي لا تكفَّر: فالرجل يحلف على الأمر يتعمد فيه الكذب، فليس فيه كفارة. وأما اليمين التي لا يؤاخذ بها صاحبها: فالرجل يحلف على الأمر يرى أنه كما حلف، فلا يكون كذلك فليس عليه كفَّارة وهو اللغو. وعن عطاء، قال: قالت عائشة: لغو اليمين ما لم يعقد عليه الحالف قلبه[1].

ويأتي أمر الله في هذه الآية الكريمة: ﴿... واحفظوا أيمانكم...﴾ وفي تفسير الطبري، يقول: « **(واحفظوا)** أيها الذين آمنوا **(أيمانكم)** أن تحنثوا فيها، ثم تصنعوا الكفَّارة فيها بما وصفته لكم».

ويقول الله سبحانه وتعالى كذلك:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ (البقرة : ٢٢٤ ـ ٢٢٧)

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾. (النور : ٢٢)

(١) تفسير الطبري ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ج ٧ (ص: ١٤)، (ص: ٣١).

فمن خلال هذه الآيات الكريمة نلمس أَنَّ التوجيه الرباني يقوم على أساس عدم الحلف، وعدم اللجوء إلى الأيمان إذا لم يكن لها ضرورة شرعية. وتقوم على أساسٍ أنه إذا وقع اليمين فالوفاء به هو الأَصل، إلا إذا كان اليمين على أمر تركه أفضل، كما سيتبين لنا في الأَحـاديث الشريفة. وتقوم على أساس أن الحنث في اليمين إثمٌ يجب على المسلم أن يكفّر عن حنثه، إلا أن يكون لغواً فلا إثم فيه ولا ينشأ عنه التزام، أو أن يكون غموساً فهو أعظم من أن تكفّره كفَّارة. فقضية اليمين إذن وميدان ممارستها، ونهج هذه القضية أمر يختلف عن قضية العقود في حياة الإنسان والعهود. فالأَصل في هذه العهود هو الوفاء، وأمر الله هو الوفاء، والحضّ على الوفاء، والنهي عن النكث، ولم يرد في قضية العهود كفَّارة.

وخشية أن يكون هنالك التباس في فهم هذين النهجين نذكِّر بنصِّ أَمر الله في العهود: ﴿... **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم...**﴾، ﴿**والموفون بعهدهم**﴾، ﴿**ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها**﴾، ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾. نهجان مختلفان في أسسهما، ومختلفان في ميادين الممارسة في واقع الحياة، وربما كان هنالك نقاط لقاء بينهما.

٢ ـ نقض العهد وكفارة اليمين:

ربما يظن أحدهم أنه يستطيع، إن نقض العهد في حياته الدنيا، أن يكفّر عن ذلك بكفارة اليمين الشرعية. وهنا لابد من إيضاح قضيتين أساسيتين في هذا الصدد:

أولاً: إن العهـد قضية منفصلة أساساً عن موضوع اليمين. فالعهد يُبْرَم دون حاجة إلى قسم ويمين. وكل ما يتطلبه العهد أن

يكون على أمر أحل الله لعباده أن يتعاهدوا عليه. ولكن لا بأس أن يؤكد الرجل عهده بيمين. فتكون كفَّارة اليمين لو صحت مع العهود هي كفارة عن اليمين إذا وقع، لا عن العهد وشروطه. والعهد تصحبه النيّة والعزيمة على الوفاء، لا نيّة الغدر والنقض.

ثانياً: في جميع الحالات تكون كفَّارة اليمين كفارةً عن اليمين ذاتها، ولكنها لا ترفع الإثم أو الظلم الذي نتج عن إعطاء اليمين أو عن ترك اليمين، إذا وقع.

وربما دخل هذا الوهم من سوء فهم حديث رسول الله ﷺ:

عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال النبيّ ﷺ: «ياعبدالرحمن بن سَمرُة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وكِّلت إليها، وإن أُوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وائت الذي هو خير» (رواه البخاري)(١)

وكذلك:

عن أبي بردة عن أبيه قال: أتيت النبيَّ ﷺ في رهط من الأشعريين أستحمله، فقال: «والله لا أحملكم، وما عندي ما أحملكم عليه». قال: ثم لبثنا ما شاء الله أن نلبث. ثم أتى بثلاث ذود غرِّ الذري فحملنا عليها. فلما انطلقنا قلنا أو قال بعضنا: «والله لا يبارَكُ لنا، أتينا النبي ﷺ نستحمله فحلف أن لا يحملنا. فارجعوا بنا إلى النبي ﷺ فنذكِّره» فأتيناه فقال: «ما أنا حملتكم بل الله حملكم. وإني والله ـ إن شاء الله ـ لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفَّرْتُ عن يميني

---

(١) صحيح البخاري فتح الباري ـ دار المعرفة. ج ١١، (ص: ٥١٦/٥١٧). كتاب (٨٣) باب (١) حديث (٦٦٢٢).

وأَتيت الذي هو خير. أو أَتيت الذي هو خير وكفَّرت عن يميني». (أَخرجه البخاري)[1]

وعن أَبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَن يلجَّ أَحدكم بيمينه في أَهله آثم عند الله من أَن يعطي كفَّارته التي افترض الله عليه». (أَخرجه البخاري)[2]

ولاشكَّ أَن بين علماء المسلمين قضايا خلافية حول موضوع اليمين، مثل: هل يكفِّر الرجلُ بعد أَو قبل أَن يأتي الذي هو خير. وكذلك هل هنالك كفَّارة عند الرجوع عن الإيلاء، وبعد التربّص. واعتبر بعضهم يمين الإيلاء يميناً في معصية، لأَن ترك وطء الزوجة معصية. وهكذا يدور الخلاف حول قضايا ليست هي موضوع بحثنا. ولكن هنالك قضايا أُخرى تبرز أَهميتها في واقعنا المعاصر، حين يمارس المسلمُ دينه في واقع حياته، من مثل ما أَشرنا إليه أَعلاه. ونورد هنا كذلك بعض القضايا التي يحسن الالتفات إليها في فهم النصوص وممارستها.

أَولاً: إن كفارة اليمين لم تشرع في الإسلام على إطلاقها دون قيود. فلابد من دراسة اليمين نفسه وطبيعته وظروفه، وكذلك لابد من دراسة حال الحالف وما حلف عليه. فاليمين الغموس مثلاً لا

(١، ٢) المصدر السابق والكتاب والباب. حديث (٦٦٢٣، ٦٦٢٥، ٦٦٢٦) يلجَّ يتمادى في الأَمر ولو بدا خطؤه أَي من حلف يميناً تتعلق بأَهله بحيث يتضررون بعدم حنثه فينبغي أَن يحنث ويبرّ أَهله ويكفر عن يمينه.

كفارة فيها، لإن إثمها أعظم من أن تكفيه كفَّارة، بعد أن غمس اليمينُ صاحبَه بالإثم غمساً، لأنه حلف على أمر يعلم كذبه. وهنالك أيمان لها حكمها الخاص كالظهار والإيلاء. ولا نهدف هنا إلى تعداد جميع الحالات، ولكننا نهدف إلى عرض المبدأ نفسه. وهناك يمين لغو لا تجب فيها الكفارة. واختلف العلماء في يمين اللغو: فمنها أيمان الرماة، وأيمان الغضب والحلف على المعاصي، وغير ذلك من حالات الأيمان المتعددة في واقع الإنسان.

ثانياً: عند دراسة الحالات التي وردت الأحاديث بمناسبتها نجدها تتعلق بأمور خاصة، وحالات فردية. ونصّ الحديث يحمل مثل هذه الظلال: «**إذا حلفت على يمين فرأيتَ غيرها خيراً منها فكفِّرْ...**». أو أنها تتعلق بأمور فيها حثٌّ أو زجرٌ. ولكن ليس فيها شروط، ومصالح للناس والتزامات. ولذلك لا نرى أن هذه الصورة تنطبق على عقود أو عهود أكدتها أيمان، وقامت على أساسها التزامات ومسئوليات تمتد مع الزمن، وأعمال تتشابك فيها المصالح والعلاقات، وقضايا لا يتحقق نجاحها إلا بالوفاء. فلو تعاهد رجلان على إقامة بناء، وحلفا على ذلك وكان البناء يحتاج إلى مال، وإلى ارتباطات مع شركات، ودوائر حكومية، وعمال وموظفين، ومكاتب، وسيارات وآلات وخلاف ذلك. ثمّ بدأ العمل وقامت الالتزامات واشتبكت المصالح. فهل يُعقل أن يأذن الإسلام لأحدهما أن يدير ظهره، ويترك العبءَ كله على من عاهده، ليواجه المسئوليات القانونية والخلقية والمالية وحده.؟! هل يأذن الإسلام لأحدهما بنقض الشروط في وسط الطريق، لتقع المصيبة على

أحدهما حين يدير الآخر ظهره مكتفياً بكلمات يتمتمها، أو بأعذار من هوى ومزاج، يحاول أن يبحث لها عن تسويغ في دين الله. لا! إن الإسلام الذي جاء لينظم حياة البشرية كلها، لا يمكن أن يأذن بهذا التفلت. وربما كان الحنث باليمين هنا ونقض العهد أشد إثمًا من اليمين الغموس. وربما تتحطم حياة عائلات من هذا النقض! ربما تتأثر أمّة، فيضعف فيها الخير ويقوى الفساد، ربما يُفتح للعدوّ فرْجة. فماذا تُغْني كفارة اليمين عند ذلك. ولذلك جاء في تفسير ابن كثير عن الآياتَ في سورة النحـل: ﴿... **ولا تنقضـوا الأيمان بعد توكيدها...**﴾، قال: «إن كلمة الأيمان هنا تعني الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حثٍّ أو منع»[1] ونعيد هنا ونقول لو جازت الكفَّارة هنا فإنها تكون عن الحنث باليمين فقط وليس عن المظالم أو الآثام التي تترتب عن الحنث.

ثالثاً: إن الأحاديث الثلاثة السابقة تحمل صيغة للتفضيل مثل كلمة: آثم، وخير. فكلمة آثم لا تعني أكثر إثمًا من الحالة التي هي أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه. فإعطاء الكفارة ليس إثمًا. ومثلهـا قوله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون: ﴿**فتبارك الله أحسن الخالقين**﴾. فلا تعني هنا أن المفاضلة جائزة بين خالق وخالق. لا! فما من خالق إلا الله. وكذلك في الحديث الشريف: «... فرأيت غيرهـا خيراً منهـا...» فإذا تعـارضت المفاضلة مع قاعدة شرعية، توقفت المفاضلة.

---

(١) تفسير ابن كثير ـ دار المعرفة مجلد (٢) (ص: ٥٨٣).

وهذا يزيد من توضيح القاعدة السابقة التي عرضناها وفرقنا فيها بين نوعين من الأيمان: أيمان العهود، وأيمان الحثّ والمنع. وتظل دائمًا القاعدة الأساسية هي التزام منهاج الله في تحري الحق والتقوى وليس التزام الهوى. والتزام منهاج الله في تناسقه وترابطه كما سنعرض بعد قليل.

رابعاً: الأساس الذي يبحث عنه المؤمن أولاً هو عمل الخير. فالإسلام يحضّ على الخير والعمل الصالح. فلا يمكن أن يجعل من الكفّارة منفذاً لمن يريد أن يتفلّت من مسئولياته والتزاماته، وإلا فسد المجتمع واضطربت حياة الناس، وضاعت حقوقهم، وساد الشرّ بدل الخير.

وهنا نود أن نؤكد أن الممارسة الإيمانية هي العمل الصالح. ويُحَدَّد العمل الصالح وفق ميزان منهاج الله، لا وفق الهوى والرغبات الفردية، والمصالح المتصارعة:

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ . . .﴾ (المؤمنون: ٧١)

ولقد تحدثنا عن خصائص الممارسة الإيمانية في أكثر من موضع في كتبنا. ولكننا هنا نريد أن نشير إلى قاعدة واحدة هامة، ألا وهي ممارسة منهاج الله على تناسقه وترابطه. فلا نستطيع أن نأخذ حكمًا واحداً من آية أو حديث نعزله عن منهاج الله كله، ثم نمارسه في واقع حياتنا. ذلك لأن حالات متعددة من الواقع، تبرز لنا أثناء الممارسة، وهذه الحالات تفرض علينا أن نأخذ آيات الله على تناسقها وترابطها. فحكم اليمين كما عرضنا قبل قليل لا ينعزل عن

سائر قواعد منهاج الله. لا ينعزل عن قواعد أخلاق الإسلام من: بّر ووفاء وصدق، وتعاون، وعلم، والتخلص من الهوى، وحفظ الحقوق، وأداء الأمانات، وعدِّد من ذلك ما شئت. فيبقى للخلق دوره وأثره، وتبقى معاني الوفاء، والإحسان سارية، يراعيها المؤمن كلها عندما يعطي اليمين أو عندما يكفّر عن اليمين.

ونضرب مثلاً آخر. فعندما يفتي عالم بأن الجهاد فرض كفاية مثلاً. فكثير من الناس يحسبون أنهم بهذه الفتوى يستطيعون أن يُديروا ظهورهم كليَّةً للجهاد، ويسترخوا ويناموا كأن الأمر لا يعنيهم. إن كون الجهاد فرض كفاية في واقع ما لا يعني أكثر من المباشرة العسكرية بالسلاح في مكان ما، لا يعني أكثر من مباشرة معركة قائمة أو حرب دائرة في ميدانها. ولكن الجهاد لا يتوقف عند ذلك: فمن يقيم المعاهد والمصانع؟! ومن يؤمن الغذاء والعلاج؟! إن التفلت من المسئولية والهروب منها ليس من نهج الإيمان، ولا خلق الإسلام، ولا توجيه القرآن، فميادين الجهاد الأخرى تظلّ مفتحة للصادقين.

أمثلة كثيرة تُبين لنا أننا يجب في ممارستنا الإيمانية أن نأخذ منهاج الله على تناسقه وتكامله، ومن هنا تنشأ النظرة الفقهية الإيمانية، ويستكمل معنى الفقه حين يرتبط بالواقع من خلال منهاج الله.

إننا بحاجة إلى هذا التصوّر الفقهي الذي ينبع في قلب الإنسان من تناسق وتكامل منهاج الله آيات وأحاديث. ولا ننكر أن هذه نعمة يَمنّ الله بها على من يشاء من عباده. ولكن مدرسة الدعوة الإسلامية يجب أن تستمرَّ في تدريب المؤمنين في الميدان على فقه

الممارسة الإيمانية، حتى يستطيع كل مؤمن أن يصدق الله في ممارسته الإيمانيّة في حدود اختصاصه ومسئوليته، ووسعه وأمانته. ومن هنا تبرز القاعدة الإيمانية العظيمة أن يلتزم المؤمن حدوده: حدود وسعه وطاقته، وحدود مسئولياته وأمانته، وحدود علمه واختصاصه.

٣ - نقض العهود أو التفلت منها :

ربما يسأل مسلم: متى يجوز للمسلم أن يتفلّت من عهده، أو كيف ينقضه؟ وربما يكون السؤال نابعاً من رغبة خفيّة في النفس توسوس للمسلم بترك عهده لأسباب يزينها الشيطان له. ربما يسأل وكأنَّ سؤاله هو مجرَّد سؤال فقهي، ويخفي أنه يبحث عن مسوِّغات له في دين الله. وهنا قد يوقعه الشيطان في شرّ كبير، حين يحاول أن يؤول الآيات والأحكام لتتفق مع هواه. إن هذه حالة نفسية يتعرض لها المسلم في العهود وفي غيرها، حين يريد أن يخضع الآيات والأحاديث لهواه لا عكس ذلك. هذه حالة خطرة تمتد أحياناً في حياة الناس، فلابدّ من الحذر منها والنصح فيها حتى يسلم إيمان المسلم من فساد وأذى. وقد بين الله سبحانه وتعالى خطورة مثل هذه الحالات:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ...﴾ (المؤمنون: ٧١)

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (الفرقان: ٤٣)

والمؤمن كذلك يبحث أولاً عن وسائل تثبيت عهده والوفاء به طاعة لله، قبل أن يسأل عن منافذ التفلّت. واجب المؤمن أن يتعلم كيف يؤدي أوامر الله في عهده، وكيف يرعاه بتقوى الله. وواجب

المؤمن أن يسأل كيف يثبّت عزائم إخوانه، لا كيف يخذِّل ويثبط. وواجب المؤمن أن يسأل كيف يحمي نفسه وإخوانه من الفتنة والهوى والشيطان. وكيف يوثق العُرى لا كيف يحلها.

كان لابد من هذا التمهيد حتى نتعلم جلاء الفقه، ووضوح التحليل وصدق العلم.

قد يسأل مسلم هل يمكن ترك العهد ونقضه إذا كان في العهد شرط مخالف لمنهاج الله؟ فالحقيقة أن هذا كلام لا يستقيم مع نفسه. لأننا نحن نتحدث عن «**عهد الله**». نحن نتحدث عن العهد الذي ارتبط بعهد الإنسان مع ربه، وبعهد المؤمنين مع الله ورسوله، ونبع العهد كله وقامت شروطه على هذا الأساس. وهذه القضية يجب التثبت منها قبل إعطاء العهد. وأما إذا تبيّن على الطريق نقاط غابت عن أصحاب العهد أولاً، ووضح لهم أمر منهاج الله وضوح نصٍّ لا خلاف فيه، وليس موضع اجتهاد وتأويل قد يجر فتنة، فهنا يمكن إصلاح الشرط الفاسد مادامت سائر شروط العهد أو العقد سليمة قائمة. فالخطأ أو فساد شرط يمكن إزالته لا يبطل العقد، ولا يلغي الالتزامات.

وعهد الله في حياة الإنسان هو العهد المتصل بعهد الإنسان مع ربه، القائم على ولاء صادق واعٍ لله، وولاء نابع من الولاء لله مرتبط به. ولقد قال ابن عطية في تفسيره لسورة النحل: «عهد الله: لفظ لجميع ما يعقَد باللسان ويلزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للدين»[1].

---

(١) تفسير ابن عطية: ج ٨. (ص : ٤٩٨).

ويقول الدكتور محمد محمود حجازي في التفسير الواضح عند تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وأوفوا بعهد الله...﴾ يقول: «عهد الله عام شامل لكل عهد بينك وبين نفسك، أو بينك وبين ربك، أو بينك وبين غيرك. كل ذلك عهد الله. إن عهد الله كان مسئولا»[1].

وبعد أن يعرض تفسير الطبري أقوال بعض العلماء في سبب نزول الآية، ويبين الآراء المختلفة في ذلك، فإنه يختم عرضه بقوله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله تعالى أمر في هذه الآية عباده بالوفاء بعهوده التي يجعلونها على أنفسهم، ونهاهم عن نقض الأيمان بعد توكيدها على أنفسهم لآخرين، بعقود بينهم بحق، مما لا يكرهه الله. وجائز أن تكون نزلت في من بايع رسول الله ﷺ بنهيهم عن نقض بيعتهم حذراً من قلة عدد المسلمين، وكثرة عدد المشركين، وأن تكون نزلت في الذين أرادوا الانتقال بحلفهم عن حلفائهم لقلة عددهم في آخرين لكثرة عددهم، وجائز أن تكون في غير ذلك. ولا خبر تثبُت به الحجة أنها نزلت في شيء من ذلك دون شيء. ولا دلالة من كتاب ولا حجة عقل أيٌّ ذلك عُنِيَ بها، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قلنا لدلالة ظاهرة عليه، وأن الآية قد نزلت لسبب من الأسباب. ويكون الحكم بها عامّاً في كل ما كان بمعنى السبب الذي نزلت فيه»[2].

(١) التفسير الواضح: المجلد ٢. ج ١٤ (ص: ٦٥).

(٢) تفسير الطبري: ج (١٤). (ص: ١٦٥). ط ٣ شركة محمود الحلبي - القاهرة.

والمسلم عليه أن يعرف العهد وأسسه وما يحتاجه من تفاصيل، وعليه أن يعرف النهج الذي يسير عليه، حتى يطمئن قلبه إلى توافر الشروط والأسس التي عرضناها في الصفحات السابقة، وحتى يطمئن قلبه إلى أنه أطاع الله في ذلك عن بيّنة ووضوح. فهو الذي يحمل مسئولية عمله أولاً بين يدي الله، يوم الحساب! وله كذلك أن يستوضح ويتبيّن حتى يبلغ درجة الاطمئنان. إن القضية قضيته هو أولاً والمسئولية مسئوليته هو أولاً، حتى ينظر في نفسه وإيمانه وتقواه، وحتى يطمئن هو إلى أن ولاءه الأول لله سبحانه وتعالى، وأن عهده مرتبط بعهده الأول مع الله سبحانه وتعالى، وأن كل ولاء وكل عهد ينبعان من الولاء الأول والعهد الأول، فإذا توافرت الأسس والتفاصيل التي تحقق ذلك في عهده، فإنه يستطيع أن يحدد موقفه بجلاء واطمئنان.

ولقد رأينا في تفسير الطبريّ مما عرضناه من تفسير الآيات الكريمة من سورة النحل أن أحد الأقوال في سبب نزولها هو النهي عن ترك العهد للانتقال من حلف عدده قليل إلى حلف آخر عدده أكبر وأقوى. إن هذا الانتقال يبيّن اضطراب الميزان، فالقلة والكثرة ليست شرطاً إيمانياً يقوم عليه العهد. فلابد إذن من أن يتحقق المسلم نفسه من أن ميزانه للأمور ليس ميزان هوى ودنيا ومصالح. عليه أن يتحقّق هو من نفسه أن ميزانه تقوى وإيمان، وعلم ووضوح، ونيّة وعزيمة.

هنالك فرق كبير بين أن تقيم تجمعاً لحزب دنيوي ومصالح دنيوية، وبين أن تقيم تجمعاً ربّانيّاً يبني دعوة لله. وتبدأ الفروق من

اللحظة الأُولى، من اللحظة التي تجمع الناس بها والنهج الذي يمضي لأجل ذلك، والوسائل المتوافرة في النهج والدعوة لتيسير الدراسة والاطمئنان، وتوفير الوضوح والجلاء، حتى يستطيع المسلم أن يحدد موقفه على بيّنة وجلاء، وثقة واطمئنان، وحتى يستطيع أن يزن قضاياه بميزان الإيمان والتقوى.

وكما يتحمل المسلم نفسه مسئولية عمله، فإن غيره يتحمل كذلك مسئولية يحاسب عليها يوم القيامة وهو يدعو الناس إلى نهج وخطة، وإلى دين ودعوة، وإلى أمر جليل عظيم، إلى أمر هو أعظم ما في الحياة من أمور.

والداعية يتحمل مسئولية كبيرة، والدعوة كلها تتحمل مثل هذه المسئولية، حين تتقدم للناس وتدعو الناس وتجمع الناس. ولابد أن يكون الميزان هنا دقيقاً أميناً، ولابد من أن يكون النهج واضحاً غنيّاً ولابد أن تستقيم الوسائل والأساليب على أمر الله، لابد من أن يتوافر هذا كله في الدعوة والداعية، حتى تُهيَّأ أسباب الثقة والاطمئنان، وصدق الحجة والبيان، على صورة ممتدة مع الزمن، تزيد جلاء وقوة، وتزيد ثقة واطمئناناً في قلوب الصادقين الذين صح ولاؤهم لله وصدق عهدهم مع الله.

إن هذه القضايا كلّها نراها ضرورية مع اللحظة الأُولى، حتى يكون ميدان التنافس بعد ذلك بين الدعاة العاملين هو ميدان الآخرة، ميدان يجلو المواهب في تعاون وسباق للجنّة، ويجلو القلوب من أحقاد وضغائن، وفتن وشقاق، وتناحر وتدابر.

عندئذ يصبح الانتقال من حلف إلى حلف، أو من عهد إلى عهد، قضية أخرى يزنها المؤمن بميزان الإيمان، فيصبح التحوُّل الذي يُبنَى عليه نقضُ عهد من «**عهود الله**» أمراً باطلاً لا يجوز ولا يحل.

ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى هذه العهود الممتدَّة في حياة الإنسان قيمتها وقوتها وحرمتها حين نسبها إلى نفسه جلّ جلاله فسماها «**عهد الله**».

ولقد بين رسول الله ﷺ خطورة نقض العهد في حديثه الشريف حين يصبح نقض العهد غدراً:

عن عبدالله بن عمر قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غُدرة فلان». (رواه مسلم)[1]

ثم يقول عبدالله بن عمر: وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الشرك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيعته.

وربما قامت عهود في حياة الناس يحميها سلطان وقوة، ويحميها قانون وجند، وعقوبات وقصاص. ولكن هنالك عهود في حياة الناس لا تجد حمايتها إلا في فطرة سليمة نقية، وإيمان صادق، ووفاء أمين، وخلق قويم، وخشية من الله العليّ العظيم، وعلم في كتابه الكريم.

ويأبى الإسلام أن تكون أحكامه تكِئة لمتفلت أو لاهٍ، أو صاحب هوى أو مصلحة.

(١) صحيح مسلم: كتاب (٣٢). باب (٤). حديث (١٧٣٥).

إن حماية العهود واحترامها والوفاء بها هو أساس متين في قيام لقاء المؤمنين، وهو أساس متين في لقاء الدعوة الإسلامية على برٍّ وصلاح وصدق ووفاء، وهو أساس متين لقيام الأمة المسلمة الواحدة. إنه النواة التي تجتمع مع الأيام حولها الجزئيات والذرات لتتشابك كلها على عهد واحد في أمة واحدة.

وإذا ذهبت حُرمة العهود، فلن تلتقي قلوب وعزائم، وستتمزّق كلُّ محاولات بناء لقاء المؤمنين، وكل محاولات بناء الأمة المسلمة.

نقض العهود مفسدة كبيرة في حياة الإنسان. وإثم عظيم في ميزان الإيمان، مادامت العهود مستوفية للشروط التي سبق عرضها.

ولذلك جاءت جميع نصوص العهود والعقود جلية واضحة، لا تترك مجالاً لغموض وإبهام. فاستمع إلى قوله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين على مدى الدهر حتى قيام الساعة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ ... ﴾ (المائدة : ١)

نصّ واضح صريح، لا تأويل ولا غموض ولا إبهام. ولكن يمكن إنهاء العهد والعقد وفق شروطه المنصوص عليها في العقد نفسه، إذا كان العقد قد أدخل هذا الشرط فيه، أو عند انتهاء وظيفة العقد ومدته المنصوص عليها، وغايته المحددة فيه.

وينظر الإسلام إلى العهود كلها، والعقود كلها، نظرة واحدة في جميع الميادين في حياة الإنسان، لتقوم كلها على هذه النظرية والأسس، وعلى هذه القواعد الإيمانية العامة. دون أن يتعارض هذا مع وجود حالات خاصة وشروط خاصة بكل ميدان من ميادين

الحياة: كالتجارة والصناعة، والسياسة، والأحلاف، وغير ذلك.

ونجد في صحيح البخاري ـ فتح الباري ما يلي ـ: «ويختلف (حكم اليمين) باختلاف حكم المحلوف عليه، فإن حلف على فعل واجب أو ترك حرام فيمينه طاعة والتمادي واجب والحنث معصية، وعكسه بالعكس. وإن حلف على فعل نفل فيمينه أيضاً طاعة والتمادي مستحب والحنث مكروه، وإن حلف على ترك مندوب فيعكس الذي قبله، وإن حلف على فعل مباح فإن كان يتجاذبه رجحان الفعل أو الترك كما لو حلف لا يأكل طيباً ولا يلبس ناعماً ففيه عند الشافعية خلاف»[1].

من هذا الشرح ومن غيره نرى أن الأمثلة التي يضربها الفقهاء على موضوع اليمين هي من أمور الحث والمنع، ومن الأمور الخاصة، التي لا يُبْنَى عليها حقوق، وشركات، والتزامات، وعقود ومصالح متشابكة للمسلمين. ونلاحظ كذلك أن أساس المفاضلة حسب نصّ الحديث: «... **فأرى غيرها خيراً منها...**»، على أساس الشرح في صحيح البخاري هو حالة المحلوف عليه، بين واجب ومندوب ومباح، أو معصية أو ترك واجب أو ترك مندوب. فإذا كان اليمين على واجب أو نفل أو مندوب أو مباح فإن اليمين طاعة والتمادي في اليمين هو خير. والحنث يتأرجح حسب الحالة بين المعصية والمكروه.

وفي نهاية هذا البحث نود أن نشير إلى أن فقه المؤمنين في مدرسة النبوة كان مشرقاً بالإيمان والعلم والوعي. ونضرب على ذلك مثلاً

---

(١) صحيح البخاري ـ فتح الباري ج ١١. (ص: ٥٢٠/٥٢١).

يبيّن كيف كان المؤمنون يتلقون آيات الله، فينصرفون إلى تنفيذها دون لجاج أو فتنة أو خلاف.

لما نزلت آية الحجاب من سورة النور، وفيها: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهنّ...﴾، تلقت النساء المؤمنات الآية وقمن إلى تطبيقها فوراً دون صعوبة.

عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت: «يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرُهنَّ على جيوبهن...﴾ شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها، وفي رواية أخرى: شققن البرد مما يلي الحواشي فاختمرن به»[1].

وعن صفية بنت شيبة قالت: «بينما نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان.»[2].

النساء المؤمنات سمعن الآية فطبقنها بيسر وسهولة، دون أن يحدث خلاف أو جدال بينهن ولا بين المسلمين. وما بلغنا رواية

---

(١) تفسير الطبري: ج ١٨. (ص: ١٢٠).

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ج٢ (ص: ٦٠٠).

تبيّن حدوث ذلك. ونرى صدق اليسر في الممارسة الإيمانية حيث نتدبّر قوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

(القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠)

وكذلك نقول إن «**لعهد الله**» في الحياة الدنيا شروطاً، سبق أن ذكرناها، فإذا استوفى العهد الشروط حتى أصبح عهداً لله أو عقداً لله فلا مجال لنقضه. وأما إذا لم يستوف شروطه الإيمانية، فيبدأ السعي لاستكمال الشروط حتى يستقيم العهد على جلاءٍ وبيانٍ عهداً لله! والنقض لا يكون إلا لعهود نقضت نفسها، واضطربت شروطها، حتى لم تعد عهداً لله! أو أنّها ظلت حائرة مضطربة لا ترسم نهجاً، ولا تحدِّد درباً، ولا تعيّن ثغراً، حتى تختلط أعمال المسلمين في تنافس على الدنيا، وصراع خَفيٍّ أو علني عليها.

وفي ختام هذا البحث نتوجه إلى الله العلي القدير أن يتقبل عملنا خالصاً لوجهه الكريم. اللهم إنّا نحمدك حمداً كثيراً، ونستغفرك ونتوب إليك، ونسألك السداد والرشاد، والقوة والعزيمة، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث

العهد في لقاء المؤمنين

العهد في لقاء المؤمنين

إن أساس العهود في حياة المؤمن هو عهده الثابت مع الله سبحانه وتعالى، عهداً أخذه الله من بني آدم كلهم في عالم الغيب. وأخذ الله هذا العهد من جميع الأنبياء والمرسلين، ومن أقوامهم وأممهم، وكان العهد مع محمد ﷺ وأمته هو خاتم هذه العهود وجامعها.

فعندما تمضي الدعوة الإسلامية في الأرض، فلابد من أن يكون من أول مسئولياتها هو التذكير بهذا العهد العظيم، التذكير به من خلال آيات وأحاديث، وسيرة أنبياء ومرسلين، وسيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

ومن خلال ذلك، ومن خلال الواقع الذي يمر به المسلمون، تقوم كل حركة إسلامية بتحديد دورها الذي ستقوم به، ومهمتها التي ستنشط لها، والثغر الذي ستقف عليه.

ومن خلال هذا التحديد الجلي البين للمهمة والدور والثغر، تحدد كل حركة إسلامية أسس عهدها وشروط قيامها، حتى تستطيع بعد ذلك أن تضع خطتها البشرية ونهجها الإيماني، ليقوم ذلك كله على الأساسين العظيمين: منهاج الله قرآناً وسنة، والواقع البشري الذي ستعمل الحركة فيه والمرحلة التاريخية التي تجتازها دعوة الله في الأرض.

وبمقـدار ما تحمل كل حركة إسلامية من وعي وإيمان، وعلم وتدبر، وخبرة ومران، بمقدار ذلك كله تستطيع الدعوة الإسلامية أن تعي الدور التاريخي الذي تمر به والذي يمر به المسلمون، وعلى أسـاس هذا الوعي تستطيع أن تحدد مهمتها ودورها والثغر الذي ستقف عليه. وعـلى أسـاس ذلك أيضاً تعرف الحركة الإسلامية أسس اللقـاء بين الحـركـات المسلمـة، وليضمر الخلاف وينتهي الشقاق إلا عند الذين في قلوبهم مرض. وعلى أساس من واقعنا اليوم، وعلى أساس من المنهاج الرباني، وعلى أساس وعي الدور التاريخي للأمة المسلمة والدعوة الإسلامية، نضع تصور عهد لقاء المؤمنين ونوجزه في نقاط محددة:

١ ـ أن يبـدأ المسلم بنفسـه فيحـاسبها ويراقبها قبل أن يحاسب الناس، ليكون أقرب للتقوى، وليحقق في نفسه ونيته حقيقة عبوديته لله، وأن يتابع هذه المحاسبة والمراقبة في مسيرة حياته كلها.

٢ ـ أن يلتـزم بدراسة منهاج الله قرآناً وسنة ولغة عربية، ليأخذ التصورات النقية الصافية من هذا النبع دون شوائب، قدر وسعه الصادق وطاقته التي وهبها الله له والتي يحاسبه عليها، صحبة عمر وحياة، بعزيمة وجد، دراسة منهجية متكاملة لا يأخذ جزءاً ويترك جزءاً، دون أن تتعطل مسئوليات العلماء والمعاهد وأولي الأمر في ذلك، بل يعينون عليه حتى تتكامل الجهود.

٣ ـ دراسة الواقع دراسة منهجية مصاحبة لدراسة منهاج الله، لتحقيق سلامة ممارسة منهاج الله، ولتوفير قاعدة الحذر والتبين، ولتكوّن هذه الدراسة مع دراسة منهاج الله أساسين في التربية والبناء وفي النظرية العامة للدعوة الإسلامية، وفي النهج والتخطيط، والبذل والجهد، وليجد المؤمن في دراسة الواقع آيات بينات من سنن الله الماضية في الحياة تزيد من إيمانه ويقينه.

٤ ـ أن ينطلق المؤمن في عمله كله على أساس النيّة الصادقة المتجددة، النيّة الخالصة لله سبحانه وتعالى، والعزيمة الجادة والوعي والتثبّت، حتى لا تقف به الأهواء والمصالح، ولا تصدّه الشهوات، ولا الحالات النفسية المتبدّلة إلى تلمس الأعذار للاسترخاء أو الكسل أو التفلّت. ويمضي المؤمن على عهده بالنية الخالصة والعزيمة القوية في العسر واليسر، في المنشط والمكره، فيما يحب ويكره، على غير معصية لله. والممارسة الإيمانية محك ذلك وموضع تمحيصه.

٥ ـ يسعى وهو يدرك أنه جندي في أمة، ومجاهد في دعوة، تربطه رابطة الإيمان مع المؤمنين، فيحافظ عليها من أن تتحول إلى عصبية جاهلية، ويرعاها دون أن يخدع إلى فتنة، ويرعاها على نور من منهاج الله ومن وعي الواقع الذي يعمل فيه. يعي نهجه ودربه، وأهدافه، ويرعى معها سائر الروابط الإيمانية.

٦ ـ يسعى لأداء واجبه بعزيمة ووفاء: يعرف حدوده ويعرف

حدود غيره على أساس من الميزان الرباني العادل، ليكون سبباً من أسباب قوة الأمة.

٧ - تظل النصيحة مدار عمله يحرص على تقبلها وعلى أدائها. ويحرص على أدائها بالأسلوب الصالح المناسب، والوقت المناسب، والمكان المناسب، عن علم وبيِّنة، خاضعاً لجميع شروط النصيحة التي يبينها منهاج الله، وخاضعاً لجميع شروط الرأي كذلك.

٨ - التزام قواعد الخلق الإسلامي في النشاط كله.

٩ - التعاون على البر والتقوى، والثبات على الحق، على أساس من علم في منهاج الله والواقع، في حدود الاختصاص والمسئولية، ومعرفة الحدود والوسع. وإبداء الرأي متى وجب عليه أو طلب منه، والسمع والطاعة، وحماية دين الله ونصرته بوعي وسلامة تخطيط.

١٠ - تظل الدعوة إلى الله والرسول، والدعوة إلى دين الإسلام، محور حياة المؤمن، ومحور عمل لقاء المؤمنين، تنقله الدعوة من هدف إلى هدف، يسعى إلى الهدف الأكبر والأسمى: الجنة!

١١ - تظل ممارسة منهاج الله ممارسة إيمانية لا تتوقف عند شعائر العبادات، ولكنها تمتد إلى جميع ميادين الحياة صغيرها وكبيرها، حيث يحتاج المؤمن في جميعها إلى فقه يقوم على الإيمان الصادق والعلم الصادق بمنهاج الله والواقع. وتقوم

ممارسة منهاج الله كلها في جميع الميادين على أساس التوحيد الخالص لله، والولاء الخالص لله. ومن التـوحيد الصادق، ومن الولاء الخالص لله تمتد سائر الولاءات في حياة المؤمن.

١٢ - إن هذه التكاليف لا تمثل جميع التكاليف الشرعية، ولكنها تكاليف نبرزها في هذه المرحلة على أساس واقع المسلمين، دون أن تسقط سائر التكاليف الربانية المفصلة في منهاج الله. ولكنهـا تتكامل وتتناسق في منهاج الله. وينهض المؤمن إلى تكاليفه على موازنة أمينة عادلة.

١٣ - إن جميع عهود المؤمنين في حياتهم تكون امتداداً للعهد الثابت مع الله، وكل ولاء يقوم في حياته هو امتداد للولاء الحق لله سبحانه وتعالى، وينبع ذلك كله من إيمان وتوحيد، وعبودية لله رب العالمين. فتنال عهود المؤمنين حقها وصدقها ووفاءها في الحياة الدنيا، وأجرها وثوابها في الدار الآخرة، فضلاً من الله ورحمة.

١٤ - يلتزم المؤمن في عهده مع الله بالسمع والطاعة لله ولرسوله، ويلتزم كذلك بالسمع والطاعة على الثغر الذي يقف عليه في عهده الممتد مع الله.

١٥ - يلتزم المؤمن نهج لقاء المؤمنين، ونهج سبيل المؤمنين، وقواعده وأسسه وإدارته، التزاماً نابعاً من التوحيد، نقياً من الهوى، بعيداً عن الشرك، يجمع القلوب والعزائم على طاعة الله.

١٦ - أن لا يقـدم رأياً في أمر من الأمور إلا عن بيّنة وتفهم لهذا

الأمر، وعن علم ودراسة وجهد قدر الطاقة والوسع في دين الله. وأن يكـون هدفـه من إعطاء الرأي أن ينصح ويعين ويبتغي بذلـك وجـه الله لا أن يفسـد ويعطل، وأن يؤدي الأمـانـة، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعين في الشورى حين تطلب منه أو تجب عليه.

١٧ ـ أن تكـون الـرابـطة بينـه وبـين إخـوانـه هي أخوّة الإيمان والإسـلام، التي أمـر بها الله سبحـانـه وتعالى وبلّغها نبيّه ورسوله محمد ﷺ، وأن يكون من مهام الدعوة تقوية هذه الرابطة وتنميتها وممارستها في واقع الحياة عملاً وتطبيقاً، وأن يرعى حقـوق هذه الأخـوة وأن يؤدي واجبهـا على قواعـد الدين، وأن يحمي ويرعى سائر الروابط الإيمانية على أساس من منهاج الله، حتى لا تتحوَّل الصداقات الشخصية إلى عصبيات جاهلية، ولا الأرحام والقرابات، إلى الإقليمية والقومية.

١٨ ـ أن يتجنب الغيبة والنميمة. فإن وجد من أخيه شيئاً ينصح إليه مباشرة بأنجح أسلوب بعد أن يتحقق بينه وبين نفسه من صدق نيته وتوجهه بعمله إلى الله. . وأن يسعى إلى الستر على أخيه مادام الستر هو الأقرب للتقوى.

١٩ ـ أن يبذل جهده وطاقته في تبليغ دين الله إلى الناس ودعوتهم إليه وتجميعهم عليه. وأن يبـذل الجهـد في متـابعـة البنـاء والتكـوين للفرد والجماعة لتكوين الشخصية المؤمنة، حتى

تجتمـع الأمـة المسلمـة على كلمة الله، وعلى أساس النهج والخطة، وأن يساهم في تحقيق سائر أهداف الدعوة الإسلامية.

٢٠ ـ أن يلتزم الدعوة الإسلامية، وأن يكون ولاؤه للدعوة نابعاً ومستمداً من عبوديته لله وولائه له وطاعته وفهم دينه وتدبره والتزام منهاجه وأمره، وأن يكون عمله هذا خاضعاً للنهج الخطة.

٢١ ـ أن يصون العهد والأمانة على أساس من منهاج الله وخطة الدعوة الإسلامية فالله لا يحب الخائنين.

فهرس الكتاب

الباب الثاني

أسس العهود في حياة الإنسان

الباب الثالث

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة السادسة .
- الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثالثة .
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة .
- التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثانية .
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثالثة .
- النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الرابعة .
- النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ـ الطبعة الأُولى .
- الولاء بين منهاج الله والواقع ـ الطبعة الثانية .
- الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام . ـ الطبعة الثانية .
- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء ـ الطبعة الأُولى .
- منهج لقاء المؤمنين ـ الطبعة الأولى .
- «خطة الداعية The Caller's Plan » ـ الطبعة الأولى .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ (مترجم إلى اللغة التركية) .

الطبعة الأولى

- الأدب الإسلامى إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية .

- الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة.
- تقويم نظرية الحداثة ـ الطبعة الثانية.

- ديوان الأرض المباركة ـ الطبعة السادسة.
- ديوان موكب النور ـ الطبعة الرابعة.
- ديوان جراح على الدرب ـ الطبعة الثالثة.
- ديوان مهرجان القصيد ـ الطبعة الأولى.

- ملحمة الغرباء ـ الطبعة الثالثة.
- ملحمة القسطنطينية (فتحان) ـ الطبعة الثانية.
- ملحمة الجهاد الأفغاني ـ الطبعة الثالثة.
- ملحمة فلسطين ـ الطبعة الخامسة.
- ملحمة الأقصى ـ الطبعة الثانية.
- ملحمة الإسلام في الهند ـ الطبعة الأولى.

- على أبواب القدس ـ الطبعة الثانية.
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع ـ الطبعة الرابعة.
- الصحوة الإسلامية إلى أين؟ ـ الطبعة الثالثة.
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (مترجم إلى اللغة التركية). الطبعة الأولى

- دراسة انتشار الموجابت الإلكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة الأولى.